الرواية العالمية ١٠

ليلة القدر

تأليف : طاهر بن چلون
ترجمة : فتحى العشرى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٨

هذه هى الترجمة الكاملة لرواية « ليلة القدر »

La Nuit Sacrée, Taher Ben Jelloun,
Editions du Seuil, Paris, 1987.

جمال الغيطاني ـ فريدة النقاش ـ نجيب محفوظ ـ صبري العسكري ـ د. صبري حافظ ـ د. محمود مكي ـ د. عبد العاطي بيومي ـ د. عاطف العراقي ـ د. عماد الدين فضلي ـ د. أحمد كمال أبو المجد ـ فاروق حسني ـ د. سمير سرحان ـ د. سيد عويس ـ مفيد فوزي ـ د. طاهر حسنين ـ يوسف القعيد ـ محمد جلال ـ د. عبد المنعم النمر ـ فهمي هويدي ـ كمال النجمي ـ د. ابراهيم بيومي مدكور ـ كمال القلش ـ أحمد عبد المعطي حجازي ـ د. شكري عياد ـ يوسف ادريس ـ د. لطيفة الزيات ـ محمد ابراهيم أبو سنة ـ د. محمود ذهني ـ صالح مرسي ـ سكينة فؤاد ـ د. عبد الحميد ابراهيم ـ اقبال بركة ـ خيري شلبي ـ عبد الفتاح رزق ـ صبري موسى .

لا لمحاكم التفتيش الجديدة ..

لا للوصاية .. لا للمصادرة ..

لا للكتابات الجنسية ..

بل هي روايات عالمية ..

فتحي العشري

ليلة القدر .. ليلة الرواية العربية !

انه فى ليلة ٨٧/١١/١٤ فازت رواية عربية مكتوبة باللغة الفرنسية ومنشورة فى باريس ، بجائزة الجونكور .. وهى المرة الأولى التى تمنح فيها هذه الجائزة لرواية غير فرنسية الأصل .. الرواية هى « ليلة القدر » والروائى هو المغربى « طاهر بن جلون».

وهو فوز لا يشكل قيمة للرواية ولكاتبها فحسب ، ولكنه يشكل فى الوقت نفسه ، قيمة أكبر للرواية العربية « أخيرا»، بعد أن شدد حولها الحصار ، وعى الأدب العربى ككل ، ليس فى فرنسا وحدها ولكن فى العالم أجمع ، وأبرز نموذج لذلك أو مثال على ذلك جائزة نوبل المشبوهة .. فلعل هذا الفوز المتأخر يفتح باب نوبل المسدود أمام العرب ، رغم تحفظاتنا الكثيرة والمعلنة حول هذه الجائزة .

عموما ، ومهما يكن من أمر ، فليلة القدر وكاتبها يستحقان ولا شك ، ولكن غيرهما من قبل ومن بعد يستحقون كذلك .

أما « ليلة القدر » أو – بالحرف – « الليلة المقدسة » .. فهى رواية مجنــونة ، ذلك الجنــون العبقرى ، الملىء بهوس الكلمة ، وفيض المعنى ، وشحنة المشـــاعر ، وبركان الشخصية ، وطوفان الأحداث ، وعنف المواقف ، وعبث الأقدار ، واستبداد الظروف ، وبشاعة الحظ ، وشناعة المصير ، وجبروت الواقع ، وسطوة الأحلام ، وقسوة الخيال ، ورعب الأســطورة ، وتحكم الجنس ، وســيطرة العواطف ، وسواد الحزن ، وظلام الآلام ، وعمى البصيرة ، ونور العتمات .

انها تلك الغلالة الســميكة التى تحدث عنها كوكتو بصـــدد أوديب ومأساته الأسطورية .

وأما « بن جلون » فهو ذلك الحكواتى المغربى الذى يجمع بين الغرابة والخيال بلغة تقف بين الذهب والفضة وان استخدمت لون الواقع الأسود أو هو الواقع الذى يمسك بالخيالين معا .

يقول بن جلون : « اغتنمت الفرصة لأقول بعض الأمور عن الاسلام ، لأنى أرى أن الدعاية الخومينية شوهت الاسلام الحقيقى والأصيل والعميق ، غير أنى لم أؤلف رواية عن الاسلام ولكنى ذكرت فى سياق الأحداث أن الاســـلام دين هام ومهم لم يتعامل قط مع الظلم والتعصب .. »

وطاهر من مواليد فاس بالمغرب عام ١٩٤٤ .. بدأ بكتابة الشعر ، فنشر ديوانه الأول « فجر » باللغة العربية .. ثم كتب « [illegible]ودة » ٧٢ ، « الانفرادية » ٧٣ ، « موحا المعتدة ، موحا الحكيم » ٧٨ ، « صلاة [illegible]ائب » ٨١ ، « طفل الرمل » ٨٥ ، « ليلة القدر » ٨٧ ، فضلا عن الدواوين الشعرية والدراســـات الأدبية .. وقد حصل على درجة الدكتوراه من جامعــة الســــوربون فى التحليل النفسى عن المهاجرين المغاربة فى فرنسا .

وكان بن جلون قد وصل الى باريس عام ١٩٧١ ، وكتب في الملحق الأدبي لجريدة الموند ، وعين عضوا بالمجلس الأعلى للفرانكوفونيين أو الناطقين بالفرنسية ·· وفي العام نفسه أصدر ديوانه الثاني والأول باللغة الفرنسية « رجال تحت الكفن الصامت » ثم ديوان « ندوب الشمس » في العام التالي ، ثم « حديث الحمل » ٧٤ و « ماتت أشجار اللوز متأثرة بجراحها » ·

وأعمال بن جلون بشكل عام تقدم صورة مغربية عربية فولكلورية أساسها المرأة وأحيانا الرجل ·· وهو متأثر بأبي العلاء المعري وخاصة برسالة الغفران أو هو على الأقل امتداد له ·

ومن الواضح أنه يخلط في أعماله الروائية بين سيرته الذاتية وقصص خيالية متأثرة الى حد كبير بحكايات ألف ليلة وليلة ، ومن هنا صعوبة الفصل عند القراءة بين ما هو واقع وما هو خيال ، خاصة عندما تجوب الشخصيات طول البلاد وعرضها بما في ذلك المدن والقرى ، سواء في سالف العصر والأزمان أو في الوقت الحالي ·

وسواء كانت هذه الأماكن موجودة بالفعل أو كانت لا وجود لها على الاطلاق ·

ويكاد يكون موضوع رواية « ليلة القدر هو نفسه موضوع الرواية السابقة عليها « طفل الرمل » ، فالأب ــ في الروايتين ــ يرزق بسبع بنات دون ولد واحد ، فيقرر أن يجعل من الوليد الجديد ولدا سواء جاء كذلك أو جاء بنتا ، وتجيء بنت بالفعل ، يطلق عليها اسم ولد ، ويعامله على أنه ولد ويجبر الأم والمولدة على اعلانه ولدا ، فيلبسه ملابس الأولاد ويعلمه في مدارس الأولاد ويصحبه معه في كل مكان ·· أما في « ليلة القدر » فيمتد الحدث ويعترف الأب لابنته وهو على فراش الموت ، ويطلق حريتها في أن تختار الجنس الذي تعيش به بنتا أو ولدا ·· ويموت الأب وتواجه

البنت مشاعرها وأنوثتها وحقد أخواتها ومكائدهن الى حد التعذيب وعيون الآخرين وأطماع الرجال وسوء الحظ وحب الأعمى وغيرة أخته وانتقام خالها الذى تقتله لتتخلص منه وتخلص منه الجميع ، لتدخل السجن وما فيه وتخرج لتنتقل الى العالم الآخر دون أن تموت بعد ٠

يقول بن جلون : « ليلة القدر ، ليست تتمة لطفل الرمل ، ولكنها نظرة مكملة لها ، فالشخصية واحدة فى الروايتين وان اختلفت فى الرواية الثانية ، فهى تعيش وسط الأحداث وتقص بنفسها وقائع حياتها » ٠

هكذا تتحول المسماة أحمد الى زهرة أو زهرة الزهور التى تقول : « التجرد من كل شىء ، وعدم امتلاك أى شىء لكى لا يملكنى شىء » فيقول المؤلف : « ليس للانسان شىء فى الأصل ، وينبغى ألا يكون له شىء فى النهاية » ٠

وعلى الرغم من أن ابن جلون يشهد له بالتحفظ وقلة الكلام والبعد تماما عن الثرثرة ، الا أنه اضطر الى قبول الرد على أحاديث كثيرة بعد فوزه خشية أن يتهم بالتعالى والكبرياء ، وربما لهذا بدا متواضعا للغاية فى اجاباته وان كان قد كشف الكثير من الغموض الذى يلف روايته الفائزة وكل رواياته أيضا والبالغ عددها حتى الآن ست روايات ٠

فقد أجمع الصحفيون والاذاعيون والنقاد الذين التقوا به بعد الفوز متسلحين بقراءة رواياته جميعا ، على أن الحادثة المحورية للرواية الفائزة ، وهى حادثة انعتاق زهرة من أسر شخصيتها الرجالية بقرار من أبيها قبل موته ، حادثة غير مقنعة روائيا وخاصة فى مجتمع مغربى يسهل فيه كشف سر فتاة تتقمص صبيا

حتى سن العشرين وأكثر ٠٠ ولكن اذا وضعت هذه الحادثة جانبا ، فان الرواية تتميز بانسانية بارعة ومؤثرة فى اطار تحرر المرأة وعلاقتها الجنسية بالرجل من حيث مكبوتاتها وحشمتها وأوجاعها ورغباتها وتدينها وتقاليدها وتراثها وسط مجتمع قاس عنيف يضعها باستمرار على هامشه ٠

ولعل أسلوب بن جلون الذى يقوم على العبارات القصيرة ، الموجهة مباشرة ، وكأنها مكتوبة لقارىء واحد ، هو القارىء لحظة القراءة ، هو الذى يزيد من شاعرية اللغة وشفافيتها ٠

ولندخل فى صلب الرواية لنجد أنها تدور حول سبعة محاور ، وهو الرقم الأثير لدى المؤلف والذى يعبر عنه من خلال عالم الأطفال الخيالى الذى تدخله البطلة وتخرج منه بسرعة أو مطرودة ، والذى له سبعة أبواب خيالية أو وهمية وسبعة أسرار لا ينبغى أن تعرف جميعا والا قضى على هذه المملكة الطفولية بأسرها ٠

المحور الأول هو « الاسلام » المرتبط لدى الكاتب بالحرية ، فالاسلام ليس بحاجة الى حمل السلاح لفرض الايمان ، هو يدعو ولكنه يترك الاختيار كمسألة ذاتية فردية فى ممارسة الروحانيات، فعلى المؤمن أن يؤمن وأن يدعو وليس عليه أن يفرض ايمانه ٠

والمحور الثانى هو «الحب » المرتبط بالجنس الذى هو السلطة، سلطة الرجل على المرأة ، وان كان بمقدور المرأة أن تمتلك الرجل عن طريق الجنس أيضا ٠٠ والجنس الذى يستعمله الرجل ردىء وليس منعشا ، والمرأة تجد فيه حاجة وارضاء للرجل دون أن يكون تعبيرا عن الحب أو قمة من قممه المشروعة والشرعية معا ٠٠ والاسلام يرى فى الجنس سموا لا نراه نحن من خلال ممارساتنا للأسف الشديد ، فنحن نمارسه ونخشاه ونخفيه ونستنكره فى الوقت نفسه ٠

والمحور الثالث هو « المرأة » المتمردة على مجتمعها الذى عاشت فيه طويلا جارية وعورة ، رغم أنها حنونة ورقيقة وغفورة ورحيمة بطبعها ٠٠ ولذلك تحاول أن تجسد ذاتها وتثبت وجودها منطلقة بعيدا عن أسر الأهل وقيد المعارف ، فترحل بعيدا رغم ما تلاقيه من أهوال وعذابات ٠

والمحور الرابع هو « الشعر » المنبه للضمير الانسانى حول ضمير العالم العربى ، ومصير شعوبه ٠٠ الشعر الشجاع فى زمن تلاشت فيه القيم الروحية ، شعر الحلاج شهيد الشعر المطلق ، فالشعر سلوك وليس لغة فحسب ؛ والشعر عشق الهى أو سياسى أو اجتماعى أو انسانى ٠٠ وهو شعر لا يداوى الجروح بل هو يفتحها لتبقى الذاكرة حية ويقظة باستمرار ٠

والمحور الخامس هو « الخيال » الذى يبعد صفة الواقع الاجتماعى عن الكاتب تماما ويقربه من تراثه القصصى أو ألف ليله وليلة على سبيل المثال ٠٠ وهو خيال قريب من الحلم المنشود والضائع الآن فى العالم العربى المشغول بالماديات المتناسى لتاريخه وتراثه ٠٠ وهو خيال قائم على الغموض وأنصاف الحقائق ، فلا شىء واضح فى حياتنا ولا حقيقة كاملة حولنا ٠٠ ومملكة الطفولة الخيالية فى الرواية هى تعبير عن طفولتنا الضائعة والهشة فى الوقت نفسه لأنها لا تحتمل أى غريب من الممكن أن يدمرها من الداخل بمستورداته التكنولوجية المبهرة ٠

والمحور السادس هو « فقدان الهوية » فالأحداث غير محددة والأماكن غير معروفة أو معرفة فمن الممكن أن تكون أى مكان وأى زمان ، ذلك أن عالمنا العربى قد فقد هويته مثلما يتآمر العالم على الهوية الفلسطينية بل والعربية جمعاء ٠٠ والا فأين السلم والسعادة منذ أكثر من ثلاثين عاما حتى بين الأوطان العربية

ذاتهـا ، وأمثلة الحروب الثنائية ماثلة أمامنـا بوضوح وبتكرار وبلا نهاية ..

والمحور الســـابع هو « الرجعية » التى يحمل لواءها بعض المثقفين فيحاكمون البعض الآخر من المثقفين مرة باسم الدين ومرة باســـم الأخلاق ، والنتيجة تسميم أجواء المثقفين العرب والدخول بهم فى ديماجوجية الى مشـــاكل سياســـية بدلا من الالتفات الى المشاكل الثقافية والتركيز على المشكلات الانسانية .

وأخيرا يقول طاهر بن جلون : « نحن المغاربة القادمون من مجتمع مرعب ، مجتمع رائع ، لا نستطيع عندما نحاول أن نكتب بجدية الا أن نعبر عن أشياء شاعرية .. »

وتجىء هذه العبارة فى ثنايا الرواية تعبيرا عن تخلف بعض قوى الرجعية فى وطننا العربى : « .. فكرت على الفور فى قصة ذلك البلد الخيالى الذى أحرقت فيه جميع الكتب ، والذى كان على كل مواطن فيه أن يحفظ كتابا عن ظهـــر قلب حفاظا على الأدب والشعر » .

فتحى العشرى

فاتحة

ما يهم هو الحقيقة :

والآن ، وقد صرت عجوزا أصبحت لدى كل الســـكينة لكى أحيا ، سأتكلم ، سأدلى بالكلمات وبالزمن · أشعر بأنى مثقلة بعض الشىء · وهذا لا يعود الى وطأة السنين ، بل الى وطأة كل ما لم يقل ، كل ما كتمته وأخفيته · لم أكن أعلم بأن ذاكرة مملوءة بأنواع الصمت وبالنظرات المتقطعة يمكن أن تصير كيسا من الرمل يصعب معه السير ·

قضيت وقتا طويلا للوصول اليكم · أيها الأصدقاء ألا تزال الساحة دائرية كما الجنون · لم يتغير شىء · لا السماء ولا الناس ·

أنا سعيدة بوجودى هنا أخيرا · أنتم خلصائى ، ونور عينى · تجاعيـــدى جميلة وكثيرة · وما بدا منهـــا على الجبين آثار ومحن الحقيقة · هى انسجام الزمن · وما بدا منها على ظاهر اليدين ، خطوط القدر · أنظروا اليها كيف تتقاطع ، كيف تشير الى خطوط الحظ ، راسمة نجمة عقب سقوطها فى مياه احدى البحيرات ·

هنا تكتب قصة حياتى : فكل تجعيدة قرن من الزمان • طريق عبر ليلة شتوية ، عين ماء صافية ، صبح من الضباب ، لقاء فى غابة ، قطيعــة ، مقبرة ، شمس محرقة •• هنا ، على ظاهر اليد اليسرى ، هذه التجعيدة ندبة ، فالموت توقف ذات يوم ومد لى نوعا من العصا الطويلة ، ربما لكى ينقذنى ! وقد رددته بادارة ظهرى له • كل شىء بسيط شريطة الا تشرع فى تحويل مجرى النهر • قصتى ليست عظيمة ولا مأساوية • هى غريبة البساطة ـ تغلبت على كل أنواع العنف حتى استحق العاطفة وأستحق أن أصير لغزا • فكم مشيت فى الصــحراء ، ذرعت الليل وعرفت الألم ، جربت « الشراسة الصافية للأيام السعيدة » هذه الأيام التى يبدو فيها وديعا كل شىء •

أيها الأصدقاء ! ما سأرويه لكم يشبه الحقيقة • لقد كذبت • احببت وخنت • عبرت البلاد والقرون • وكثيرا ما نفيت نفسى ، وحيدة بين الوحيدين • أدركت الشيخوخة نهار خريفى ، واذا بالوجه يرتد الى الطفولة ، أود التعبير عن هذه البراءة التى حرمت منها • تذكروا ! كنت طفلة مضطربة ومترنحة الهوية • بنتا مقنعة بارادة أب أحس بنفسه ناقص الرجولة ومهانا لأنه لم يرزق ولدا • وكما تعلمون ، كنت أنا هذا الابن الذى كان يحلم به • والبقية يعرفها بعضكم ، والآخرون سمعوا بها هنا وهناك • والذين جازفوا بسرد حكاية طفل الرمال والريح لاقوا بعض المتاعب ، منهم من أصيب بفقدان الذاكرة ، ومنهم من أشرف على الهلاك • لقد قصصت عليكم بعض القصص ، ولم تكن حقا قصص • فحتى عندما كنت مختبئة ومنزوية ، كانت الأشياء تنهى الى • ولم أكن مندهشة ولا منزعجة • كنت أعلم أننى ، باختفائى ، أترك ورائى ما يغذى أغرب الحكايات • لكن بما أن حياتى ليست حكاية ، فقد حرصــت على أن أصــحح الوقائع وأفشى لكم السر الدفين تحت حجر أسود فى دار عالية الجدران داخل درب مغلق بسبعة أبواب •

(١)

حالة الأمكنة

اختفى الراوى من جديد ، بعد أن اعترف • لم يحاول أحد استبقاءه أو مناقشته • كان قد نهض ، جامعـا مخطوطه الأصفر المغسول بالقمر • وبلا اكتراث غاص فى الزحام •

الذين استمعوا اليه كانوا مذهولين ــ احتاروا فى أمر هـذا الراوى الشهير الذى أحبه أهل المدينـة ــ كان يبدأ قصـة ما ثم يتركها ، ويعود لا ليواصلها بل ليقول لهم أنه ما كان ينبغى أن يحكيها لأن النحس حل به •

يوجد من لم يعودوا معجبين به • فقد أخذت الريبة تخامرهم • لم يكونوا ليحبوا هذه الأشكال من صمت يؤلفه الغياب والانتظار • لم تعد لديهم ثقة فى هذا الرجل الذى كانوا يتقبلون أقواله فيما مضى • وكانوا مقتنعين بأنه فقد الذاكرة وأنه لا يجرؤ على الاعتراف بذلك • فهو بالتأكيد راو بلا ذاكرة ، ولكن ليس معنى هـذا أنه بلا خيال • والدليل أنه جاء من الصحراء ، أسود الوجه بفعل

الشمس ، مشقوق الشفتين من جراء العطش والحرارة ، صلب اليدين من كثرة نقل الحجارة ، مبحوح الصوت وكأن عاصفة من الرمل والحصى البللورى قد هبت على حنجرته ، مرفوع البصر الى أعلى مدى وأبعده · يتوجه بحديثه الى شخص ما ، متخف وان بدا متربعا على عرش منصوب فوق السحب · يتجه اليه كما لو كان يراه · وكان الجمهور يتابع حركاته ونظراته · لا يرى شيئا ولا حتى يسمع الراوى ، وكان البعض يتخيله شيخا على جمل يلوح بيده ·

كان يتمتم بعبارات غير مفهومة · ولم يكن ذلك مفاجئا ، فغالبا ما كان يضمن حكاياته كلمات مجهولة اللغة · ويجيد ذلك الى درجة أن الناس كانوا يفهمون ما يود قوله فينفجرون بالضحك ـ لكنه فى هذه المرة ، لم يقل غير تلك العبارات الناقصة ، المبتورة المليئة بالحصى واللعاب · كان لسانه يتقلب ثم ينعقد · وكان الراوى يخجل لهذا · فقد وضح له تماما أنه يفقد ، لا العقل ـ لأنه لم يكن ضالته ـ بل جمهوره ـ نهض اثنان ومضيا دون كلمة واحدة . وما لبث أن تبعهما آخران مستاءان ومتذمران · كان ذلك نذيرا بسوء الطالع ، فلم يحدث مطلقا أن غادر أحد حلقة بوشعيب ، ولم يحدث مطلقا أن مضى أحد غير راض · لقد هبط بصره من المدى الأعلى والبعيد ، وأخذ يتابع المنصرفين بأسى ، فلم يكن يعرف للانصراف سببا ، ولا سببا لعدم الاستماع اليه · لم يعد يثق به أحد · وهذا ما لم يكن باستطاعته قبوله · فالانسان الذى سبق له أن كان هو الراوى ، هو سيد الساحة الكبيرة بلا منازع ، وضيف الملوك والأمراء ، بعد أن كون جيلا من الشعراء الجوالين وعاش سنة كاملة بمكة ، لا يسعى الى استبقاء الذين يغادرون الحلقة أو الى استعادتهم · لا ، ان بوشعيب لا يتذلل ، ولا يتنازل عن الكرامة والكبرياء · قال لنفسه « ليمض هؤلاء الناس اذا أرادوا ،

فلم يعد لأساى قرار ، تحول الى كيس من الحجارة سأحمله حتى القبر ! » •

كنت هناك ، ملفوفة بجلبابى القديم ، أراقبه ملتزمة الصمت • وماذا كان يمكنني أن أقول لأعبر له عن محبتى ؟ أية حركة كان على أن أقوم بها دون أن أكشف السر الذى كان يخفيه وكنت أنا تجسيدا له ! كنت أعرف الكثير من الأمور ،ولم يكن مجيئى الى هذا المكان وليد صدفة • كنت عائدة من بعيد • التقت نظراتنا • كانت عيناه تلتمعان بذلك الذكاء الذى يثيره الخوف • نظرته مذعورة ، يسيطر عليهـا اللا محدود ، كانت معلقة • وتعرف فى على شـبح فترة منكوبة • كان بيديه المشدودتين خلف ظهره يطوف بشكل دائرى • وكنت أنا هادئة ، أنتظر بصبر الحكماء • فقد عادت عيناه تركزان على بقلق متزايد • ترى هل تعرف على ، هو الذى لم يسبق له أن رآنى ؟ منحنى وجها وملامح ومزاجا كان ذلك فى فترة نسج الرواية • كنت صنيعته المتمردة ، اللا مدركة • فالحمق كان قد أحدث ثقوبا فى ذاكرته ، الحمق أو التضليل •

مع الزمن والتقلبات التى عشتها ، لم يعد يدهشنى أو يصدمنى أى شىء • كنت قد وصلت فى الليلة السابقة الى مراكش ، مصممة على لقاء الراوى الذى دمرته قصتى • وبالحدس وحده ، عرفت مكان حلقته وتعرفت على جمهوره • انتظرته كما ينتظر صديق خان أو حبيب أذنب — كنت قد قضيت الليل فى غرفة فوق سوق الحبوب حيث رائحة الغبار وبول البغال • استيقظت مع الشروق واغتسلت فى مسقى المسجد • لم يتغير أى شىء • كل شىء فى مكانه • المحطة لا تزال فى قتامة شبيهة بقتامة الفرن • المقهى لا يزال بلا أبواب • حتى صبى المقهى ، بشعره الردىء والسموكين المكوى ألف مرة واللامع من بقع الدهن مثل شعره ، والبابيون المعقود بطريقة سيئة ،

ادعى هو الآخر أنه يعرفني · ومن أساليبه أنه كان ينادى الزبائن بأسمائهم ولم يكن يرتاب لذلك — تقدم نحوى ، وكما لو كنا على معرفة منذ سنوات قال لى :

— قهوة بالقرفة ، ساخنة جدا ، ورغيف ذرة كالعادة ، يا أم فضيلة ...

وانصرف دون أن أتمكن من أن أقول له : « أنا لا أدعى فضيلة ، أكره القهوة بالقرفة ، وأفضل رغيف الشعير على رغيف الذرة .. »

تناولت افطارى بجوار سائق سيارة ، التهم من الشواية رأس خروف معدا بالبخار ، وشرب برادا كاملا من الشاى بالنعناع والشيبة ، ثم تجشأ عدة مرات وهو يشكر الله ومراكش على هذه الوجبة الصباحية الطيبة · نظر الى كما لو كان يود اشراكى فى ارتياحه · ابتسمت وأنا أزيح بيدى دخانه الذى كان ينفخه فى وجهى · فلما رأى احدى الفتيات تمر أمامنا على دراجة بخارية ، مسح شاربه بزهو من يقول انه أصبح بعد هذا الافطار مهيأ لاحدى الصبايا وخاصة العذارى ·

وبعد أن سلك أسنانه ، وزع البقايا على مجموعة من الأطفال المتسولين ، الذين انزووا فى أحد الأركان والتهموا البقايا · ثم ركب سيارته ودار نصف دورة ليعود أمام المقهى ، صائحا فى الصبى :
— الأسبوع القادم ، يا شارلو !

سألت الصبى وأنا أنصرف عمن يكون هذا الشخص ·

— شخص وقح ! يسمح لنفسه بكل بشىء · يدعونى شارلو بسبب ثوبى الأكبر منى كثيرا ، ويفسد المائدة ويبصق على الأرض · بل ويعتبر نفسه وسيما وجذابا ،لأن سائحة المانية ركبت سيارته ذات يوم ، فظل يتباهى بذلك طوال العام · ومن يومها وهو يتوقف

فى الذهاب والاياب ليلتهم رأس خروف • وكما ترين يا أم فضيلة ، فمن الأفضل الا ينزل مثل هذا الأبله من سيارته أبدا ••

كانت الساحة خالية تماما • ثم كقاعة مسرح أخذت تمتلىء شيئا فشيئا • كان أول من وصـل اليها الصـحراويون ، باعة المساحيق ، كالتوابل والحناء والنعناع وكذلك الجير والرمل ومنتجات سحرية أخرى مطحونة ومسحوقة ، ثم تبعهم الكتبة الذين عرضوا مخطوطاتهم الصفراء وأحرقوا البخور •

وبعد ذلك جاء الذين لا يبيعون شيئا • يجلسون على الأرض متربعين وينتظرون • أما الرواة فهم آخر من يحل • وكانت لكل منهم طريقته الخاصة •

بدأ رجل مسن ، ضامر ونحيل ، يحل عمامته ، نفضها فتساقط منها رمل ناعم • هذا الرجل قدم من الجنوب • جلس على حقيبة صغيرة من الخشب ، وأخذ يحكى وحده دون أى مستمع • كنت أراه من بعيد وهو يتكلم ويومىء كما لو كانت الحلقة مكتملة وممتلئة عن آخرها • اقتربت منه أكثر وهو ينتصف عبارة : « ••• مذاق الزمن الملحوس من قبل رهط من الكلاب • استدرت ، فماذا رأيت ؟ قولوا أيها الأوفياء ، تخيلوا أيها الطيبون ، من الذى كان أمامى ، جليلا فوق فرسه الموشاة بالفضة ، قويا فى كل المحن ، أبيا ووسيما• مذاق الزمن عديم الطعم • والخبز بائت •واللحم فاسد • وزبد الناقة عفن ••• عفن كهذه الأيام أيها الأصدقاء العابرون ••• نقول الحيـاة واذا بالنسر الوحيد يبزخ ••• » كنت زبونته الوحيدة • سكت عن الكلام ، تقدم نحوى وقال لى بلهجة :

ــ ان كنت تبحثين عن شخص ما ، يمكننى مساعدتك • ومن الجائز أن أكون هو الذى ترغبين فى لقياه • ان قصتى أخاذة • والوقت مبكر جدا على حكايتها • فهل تبحثين اذن عن ابن أم عن

زوج ؟ اذا كان ابنا فربما حل بالهند أو بالصين · واذا كان زوجا ، فالأمر أسهل فهو شيخ دون ريب ، والشيوخ فى المسجد أو يتسكعون فى المقهى · لكنى أراك لا مبالية بهذا وذاك · صمتك يقول لى · ماذا يقول لى ؟ آه ، أنت تحتفظين فى قلبك بسر ولا ينبغى مضايقتك أكثر — أنت من سلالة الأشراف · ولا تصلحين للمماحكات · أيتها الصديقة ، صحبتك السلامة — دعينى أفض حلقتى ···

انصرفت دون أن أتلفت ، بعد أن شدتنى حركات كثيرة ورشيقة يأتى بها شاب ، كان يفرغ صندوقا ويخرج منه أشـياء مختلفة يتحدث عنها مستهدفا اعادة تركيب حياة أو ماض أو حقبة وهو يقول : « عندنا هنا بعض من مصير حياة · هذا الصندوق مأوى · وقد آوت اليه أكثر من حياة · وهذه العصا لا يمكن أن تكون شاهدة على الزمن · فلا عمر لها ما تنحدر من شجرة جوز لا ذكرى لها كانت دليلا للشيوخ والعمى · ثقيلة ولا غموض فيها · أنظروا الى هـذه الساعة · الأرقام الرومانية باهتة · وقد توقف العقرب الصغير عند منتصف النهار أو الليـل · العقرب الكبير يدور وحده ـالميناء صفراء · فهل كانت يا ترى فى حوزة تاجر أم غاز أم عالم ؟ وهذه الأحذية غير المتجانسة ؟ انها انجليزية ، قادت صاحبها فى أمكنة لا وحل فيها ولا غبار · وهذا الصنبور من النحاس الفضى · هو بلا شك من دار ميسرة · وصورة عائلية موقعة « لا زار ١٩٢٢ » · الأب وربما كان الجد هو الذى يقف فى الوسط · سترته الطويلة أنيقة · وضع يديه على عصا من الفضة · ينظر الى المصور · أما المرأة فصورتها باهتة الى حد كبير · لا نراها جيدا · ثوبها طويل · وطفل صغير يضع « بابيونة » فى ياقة قميص قديم ، يجلس عند قدمى الأم · وكلب بجواره · يبدو مرهقا · وامرأة شابة تقف ، منحنية قليلا ، جميلة ومتيمة ، تفكر فى حبيبها الغائب فى فرنسا أو فى جزر الأنيتى · أحب تخيل هذه القصة بين هذه المرأة الشابة

وحبيبها · العائلة تسكن فى بكليز · الأب مراقب فى الادارة الاستعمارية · يتردد على الكلاوى باشا المدينة ، الشهير · وهذا يبدو على وجهه · مكتوب على ظهر الصورة « أمسية سعيدة ·· ابريل ١٩٢٢ » ـ وهذه المسبحة أنظروا اليها ·· من المرجان ، من العنبر ، من الفضة ·· كانت لدى أحد الأئمة · كانت المرأة تتقلدها كما لو كانت عقدا ·· وبعض القطع النقدية ·· ريال مثقوب ·· مليم ·· فرنك مغربى ·· بعض الأوراق البنكنوت التى لم يعد لها قيمة ·· طاقم أسنان ·· فرشاة ·· كوب خزفية ·· ألبوم بطاقات بريدية ·· ولنتوقف عن اخراج هذه الأشياء ·· وضعنا منها فى الصندوق ما يكفى لارباككم ·· ولآخذ القطع النقدية بصفة خاصة ! » ·

أخرجت من جيبى خاتما وألقيت به فى الصندوق ـ تفحصه الراوى ثم أعاده الى وهو يقول : « احتفظى بخاتمك ! فهو قطعة نادرة ، من اسطنبول · كما أننى قرأت عليه شيئا أفضل جهله · انه خاتم ثمين · ملىء ومثقل بذكريات ورحلات · لماذا تريدين التخلص منه ؟ هل اقترن بمصيبة ما ؟ كلا ، ان كنت تريدين اعطاء شىء ، فافتحى حافظة نقودك ، والا فلا تعطى شيئا · من الأفضل أن تمضى لحال سبيلك ! »

ودون أن أنطق بكلمة ، غادرت الحلقة على مرأى من الأنظار القلقة · كان يحدث لى من حين الى آخر أن ألتقى فى طريقى بأشخاص رد فعلهم عنيف سواء على موقف أو على حركة · وكنت أقول لنفسى وقتها بأننا ولا شك من المعدن نفسه وأن ذات الألياف هى التى نسجت حساسيتنا · وكنت أمضى فى صمت واثقة من أن أعيننا ستلتقى من جديد بالحماس نفسه ·

وأنا أعاود التفكير فى تلك العائلة الفرنسية من المعمرين التى

خرجت من الصندوق قطعا منفصلة ، رأيت امرأة تدور حول نفسها لتفك الرداء الأبيض الفضفاض التى تستخدمه كجلباب · وهى طريقة فى السفور ، تتم بما يشبه الرقص · أحسست بذلك فور ملاحظتى لحركة الساقين الماهرة ، المتناسقة تماما · كانت شابة وجميلة للغاية · عينان واسعتان كأنهما بندقتين ، وبشرة سمراء وسمانتان ممشوقتان وشيء من المكر يعلو ابتسامتها · لماذا جاءت اذن الى هذه الساحة المخصصة للرجال ولبعض المتسولات من العجائز ؟ كنا نتساءل جميعا ، بينما تضع هى فى جهاز كاسيت شريطا عليه موسيقى بربرية ، خطت بضع خطوات راقصة ثم أخرجت ميكروفون بطارية وقالت : أنا من الجنوب قادمة ، من الغسق قادمة ، من الجبل منحدرة ، مترجلة جئت ، فى الآبار نمت ، الليالى والرمال عبرت ، من فصل خارج الزمن جئت ، فى كتاب مدونة ، هذا الكتاب الذى لم يفتح أبدا هو أنا ، وأبدا لم يقرأ ، كتبه الأجداد لهم المجد ، الأجداد الذين أرسلونى لأقول لكم ، وأنبهكم ، أقول وأعيد القول ، لا تقربونى أكثر مما ينبغى ، دعوا النسيم يقرأ الحروف الأولى من الكتاب · أنتم لا تسمعون شيئا ، اصمتوا واصغوا الى : فيما مضى كان هناك شعب من البدو ، له قوافل وشعراء شعب قوى وشجاع يتغذى بلبن الناقة والتمر ، يقوده الضلال ويخلق آلهته ·· وخوفا من الفضيحة والعار ، كان بعض أفراده يتخلصون من بناتهم ، فكانوا يزوجوهن وهن أطفال أو يئدوهن · لهم جحيم أبدى · وبهم شهر الاسلام فى قوله تعالى :

« وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون الى عذاب عظيم » ·

وان كنت أتكلم اليوم بالآيات والحكم ، فلأنى كثيرا ما سمعت أقوالا لم تكن نابعة من القلب ، أقوالا لم يتضمنها كتاب بل جاءت من ظلمات الضلال ··

ظهرت الدهشة وعدم الفهم على الجمع ، كان البعض يتمتم والبعض الآخر يهز الأكتاف · وارتفع صوت قائلا :

ـ جئنا لنستمع الى الموسيقى ونراك ترقصين ·· لسنا هنا في المسجد ··

تدخل شاب وسيم بقوله :

ـ أنا سعيد بالاستماع اليك يا سيدتى · لا تكترثى بردود الأفعال هذه ، فهى صادرة عن أبناء عموم البدو !

وقال شاب آخر :

ـ الحكاية حكاية ، وليست موعظة ، ثم منذ متى تتجرأ النساء الشابات على السفور بهذا الشكل ؟ أليس لك أب أو أخ أو زوج يمنعك من هذا ؟

فلما كانت تتوقع هـذا النوع من التعليقـات ، توجهت الى المتحدث بلهجة متملقة ساخرة :

ـ ترى هل تكون هذا الأخ الذى لم يكن لى ، أم الزوج الذى حطمته العاطفة لدرجة نسيان جسده المرتعش بين السيقان المشعرة ؟ ترى هل تكون هذا الرجل الذى يجمع الصور المحرمة ليستعرضها فى وحدته الباردة ويحتضنهـا ؟ آه ! قـد تكون الأب المفقود ، المختطف بالحمى والعار ، بهذا الشعور باللعنة الذى نفاك فى رمال الجنوب !

انحنت ضاحكة ، وأمسكت بطرف ردائها ، شدته الى خصرها ثم طلبت من الشاب أن يمسك بالطرف الآخر · وأخذت تدور ببطء وهى تحرك قدميها حتى التفت بأكملها :

– شكرا ! هداك الله ! عيناك جميلتان ، احلق هذا الشارب الرجولة فى مكان آخر ، ليست فى الجسد ، ربما كانت فى النفس ! الوداع .. لدى كتب أخرى على فتحها ..

نظرت الى فى ذهول ثم قالت لى :

– من أين جئت ، يا من لا تقولين شيئا ؟

ثم مضت واختفت دون أن تنتظر منى اجابة .

تمنيت لو حكيت لها قصة حياتى . كانت ستجعل منها كتابا تتجول به من قرية لقرية .. اننى أتخيلها تماما وهى تفتح أبواب حكايتى واحدا بعد الآخر محتفظة لنفسها بالسر النهائى .

كنت قد غفوت فى الشـــمس ، فأيقظتنى ريح باردة محملة بالغبار . تساءلت ان كنت حلمت بتلك المرأة الشابة أم أننى رأيتها بالفعل وسمعتها . كنت محاطـة بجمهـور متنـوع ومتيقظ من المستمعين . فقد اعتقد الناس أننى كنت ألهو ، وأتظاهر بالنوم ، أو بأننى كنت أفكر ، منشغلة بالبحث عن خيوط قصة من القصص . صعب على أن أنهض وأغادر الساحة وأنا أفتح عينى ، فقد صمتوا وأنصتوا ، عندما قررت أن أقول لهم بضع كلمات حتى لا تكتمل خيبتهم .

– أيها الأصدقاء ! طال الليل خلف جفونى . ورتب رأسى الذى هده الارهاق مؤخرا . رحلات ، طرقات ، سماوات بلا نجوم . أنهار تفيض ، تلال من الرمل ، لقاءات بلا جدوى ، بيوت باردة ، وجوه رطبة ، مسيرة طويلة .. أنا هنا منذ الأمس ، مدفوعة بالريح ، مدركة لوصولى حتى الباب الأخير ، الباب الذى لم يفتحه أحد ، الباب المخصص للأرواح الخاطئة ، الباب الذى لا يسمى ، لأنه يفضى الى الصمت ، فى تلك الدار التى تسقط فيها الكلمات كما يسقط

الملاط بين الأحجار · تخيلوا بيتا كل حجر فيه يشكل يوما سعيدا أو شؤما ، وقد تجمد البللور بين الأحجار ، وتحولت كل حبة رمل الى فكرة أو ربما علامة موسيقية · ان الروح التى تدخل هـذه الدار عارية ، فلا يمكنها أن تكذب أو تتنكر · تسكنها الحقيقة · وكل قول خاطىء ، عمدا أو سهوا ، سن من الأسنان تسقط · لا زلت أحتفظ بكل أسنانى لأنى على عتبة هذه الدار · واذا تحدثت معكم ، سأكون حذرة ، سأبقى بالداخل وسترونني ، سأظهر كما أنا الآن أمامكم ، جسدا ملفوفا فى هذا الجلباب الذى يحمينى · قد لا ترون الدار ، ربما فى البـداية فقط · لكنكم ستدخلونها تدريجيا بقدر ما تفتح مغاليق السر ، حتى العرى المحجوب · أيها الأصدقاء ، أنا مدينة لكم بهذه الحكاية · لقد وصلت فى اللحظة التى سقط فيها الراوى المكلف بحكايتها فى احـدى الفتحات ، ضحية عمائه الخاص به · فقد ترك نفسه يعلق بالخيوط التى نسجها العنكبوت · فتح أبوابا فى أسوار ثم تركها واختفى وسط النهر ، تاركا حياتى معلقة ، فأسلمت جسدى لمياه النهر ، وكم هى كثيرة التيارات التى جرفتنى · قاومت وصارعت ، وكانت المياه تلقى بى الى احدى الضفاف ثم تستردنى عند أول فيضان · لم يكن لدى الوقت لكى أفكر أو أتصرف · وفى النهاية استسلمت · كان جسدى يتطهر ، ويتغير · أنا اليوم أتكلم معكم من بعيد الزمان · لكنى أتذكر كل شىء بدقة متناهية · فاذا كنت لا أزال استخدم بعض الصور فلأننا لم نتعارف بعد · سوف ترون أن الكلمات تسقط فى دارى مثل قطرات من الحامض · أعرف ذلك الى حد ما ، لأن جلدى شاهد على ذلك · لكننا لسنا هنا بعد · ستفتح بعض الأبواب ، ربما بدون ترتيب ، لكن ما سأطلبه منكم هو أن تتبعونى ولا تفقدوا صبركم · ان الزمن هو ما نحن عليه · حاضر على وجهنا ، فى أشكال صمتنا ، وفى انتظارنا · لنستحق زمن الصبر والأيام التى لا يحدث فيها شىء ·

(٢)

ليلة القدر

كان ذلك أثناء تلك الليلة المقدسة ، ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان ، ليلة نزول القرآن ، الليلة التى تكتب فيها أقدار الكائنات ، حين استدعانى أبى ، الذى كان يحتضر ، الى جوار فراشه وحررنى • أعتقنى مثلما كان يتم اعتاق العبيد فيما مضى • كنا وحيدين ، وكان الباب مغلقا بالمزلاج • كان يتكلم معى بصـوت منخفض • فالموت كان حاضرا ، كان يطوف بتلك الحجرة التى ينيرها ضوء شمعة • وبقدر ما كان الليل يتقدم كان الموت يقترب ، منضبا شيئا فشيئا ماء وجهه ، كأن يدا تمر على جبينه وتغسله من آثار الحياة • كانت تغمره السكينة فاستمر يحادثنى حتى مطلع الفجر • كنا نسمع المآذن تنادى للصلاة وتتلو القرآن • كانت الليلة وقفا على الأطفال ، فهم يعتبرون أنفسهم ملائكة الجنة أو طيورها •• كانوا يلعبون فى الأزقة وكانت صيحاتهم تختلط بصيحات المؤذن الذى كان يستعمل مكبرا للصوت • ابتسم أبى كما لو كان ليقول بأن ذلك المؤذن رجل يتلو القرآن فحسب •

كنت أجلس على وسادة أسفل السرير ، ورأسى الى جوار رأس أبى ، منصتة اليه دون أن أقاطعه ٠

كانت أنفاسه تلامس وجنتى ، ولم تكن رائحته تضايقنى ٠ كان يتكلم ببطء :

ــ هل تعلمين بأنه لا ينبغى أن يموت فى هذه الليلة أى طفل أو أن يتألم ، لأن هذه الليلة خير من ألف شهر ؟ فهم هنا لاستقبال الملائكة الذين أنزلهم الله ٠ « تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر » ٠ انها ليلة البراءة ، ولكن الأطفال لم يعودوا قطعا أبرياء ٠ بل هم أكثر من ذلك ، مرعبون ٠ واذا كانت هذه ليلتهم ، فستكون ليلتنا أيضا ، ليلتنا نحن الاثنين ٠ ستكون الأولى والأخيرة ٠ ان الليلة السابعة والعشرين من هذا الشهر مناسبة للحساب وربما للغفران ٠ لكن بما أن الملائكة ستحضر معنا لاقرار النظام ، فسأكون حذرا ٠ أريد اعادة الأمور الى نصابها قبل أن تتدخل ٠ انها تعتقد فى أنها صارمة تحت مظهر الرقة الطاهرة ٠ اقرار النظام هو بداية الاقرار بالمعصية ٠ هذا الوهم الفظيع الذى جلب اللعنة على العائلة بأسرها ٠

اعطنى قليلا من الماء ، فقد جف حلقى ٠ أخبرينى ، كم عمرك ، لم أعد أعرف الحساب ٠٠٠

ــ عشرون عاما تقريبا ٠٠

ــ عشرون عاما من الكذب ، والأغرب من ذلك أننى أنا الذى كنت أكذب ، أما أنت فلا دخل لك فى الأمر ، لا دخل لك أو تقريبا ٠ وأخيرا فالنسيان لم يعد حتى عاطفة ، صار مرضا ٠ سامحينى ، لكنى أود أن أقول لك ما لم أجرؤ أبدا على الاعتراف به لأى انسان ، حتى لأمك اليائسة ٠ آه ! خاصة أمك ، هذه المرأة الجادة ، التى

لا تفرح ، بل تخضع بطريقة مبالغ فيها ، أى ضجر ! كنت على استعداد دائما لتنفيذ الأوامر ، لم تتمرد مطلقا ، أو ربما كانت تتمرد فى العزلة والصمت • تلقت تربيتها من التقاليد التى تفرض على الزوجة خدمة زوجها • وكنت أجد هذا عاديا وطبيعيا • ربما كان تمردها يكمن فى انتقام غير معلن ، كانت تحمل عاما بعد عام وتلد بنتا بعد بنت ، كانت تغرقنى بالذرية التى لم أرغب فيها على الاطلاق ، وكنت أتحمل ، وأتخلى عن الصلاة • وعندما كنت أذهب الى المسجد ، كنت أعكف على اعداد خطط معقدة للخروج من ذلك المأزق الذى لم يكن يسعد أحدا • أعترف اليوم بأننى كنت أرغب فى القتل • وكان توارد مثل هذه الأفكار الشريرة فى مكان مقدس • مكان الفضيلة والسلام ، يثيرنى • كنت أستعرض امكانات جريمة كاملة ، آه ! كنت شريرا ولكنى كنت ضعيفا • والشر لا يحتمل الضعف • الشر يستمد قوته من الاصرار الذى لا ينظر الى الوراء • الاصرار بغير تردد • الا أننى كنت أرتاب • وفى الفترة التى انتشر فيها وباء التيفود ، حاولت تسهيل دخوله الى الدار • فلم أكن أعطى لأمـك وأخواتك التطعيمـات والأدوية التى توزع بالمجان ، بينما كنت أتبلعها أنا ، فقد كان على أن أظل حيا لأدفنهن وأغير حياتى • أى جبن ، أى بؤس ! لقد أبعدت الصدفة والقدر الوباء عن الدار • كان التيفود يختار جيراننا القريبين منا ويتحاشى دارنا مواصلا عمله المميت • آه يا بنيتى ، أنا خجل مما أقول ــ لكن الحقيقة فى هذه الليلة المقدسة ، تتجلى فينا ، بعلمنا وبدون علمنا • وعليك أن تنصتى الى حتى لو كان هذا يؤلمك • لقد حل بالعائلة نوع من اللعنة • كان اخوتى يكيدون لى بقدر ما استطاعوا • فقد كانوا يكنون لى كراهية مقنعة • كانت أقوالهم وأساليب مجاملتهم تزيدنى حنقا • لم أعد أحتمل نفاقهـم • كنت عندما أنزوى فى المسجد ، فى العمق ، يفرز عقلى مثلهم الأفكار نفسها • ولو كنت مكانهم لكانت لى من المحتمل الأفكار نفسها ، والرغبات نفسها ،

وأشكال الحسد نفسها . لكنهم لم يحسدونى الا على ثروتى ، وليس على بناتى صبى لى قليلا من الشاى ، فالليلة ستكون طويلة . أسدلى الستائر ، فقد يخفت صوت هذا الغبى الذى ينهق . ينبغى أن يعتنق الدين فى صمت وتأمل ، وليس بهذه الجلبة التى تكدر صفو ملائكة القدر . هل تقدرين جسامة العمل الذى عليها انجازه فى بضع ساعات ؟ التنظيف ! اقرار النظام ! انها على كل حال تعمل . أحس بوجودها فى هذه الغرفة . وأنا أساعدها على التنظيف . أود أن أرحل نظيفا ، مغسولا من كل هذا العار الذى حملته بداخلى طوال فترة طويلة من حياتى . عندما كنت شابا ، كان طموحى فى السفر ، فى اكتشاف العالم ، فى أن أصير موسيقيا وأن يكون لى ابن ، أكون أنا أباه وصديقه ، وأوقف نفسى عليه ، فأمنحه كل الفرص ليحقق ما قدر له .. كنت قد تغذيت بأمل مجنون ، لدرجة الهوس . وما كان بمقدورى اقتسام هذا الأمل مع أحد . فلم تكن أمك لديها أية رغبة . كانت باهتة . باهتة دائما ، وذابلة . ترى هل كانت سعيدة فى يوم من الأيام ؟ لا زلت أتساءل ، ولم أكن الرجل القادر على منحها السعادة ، وعلى اضحاكها . كلا أنا نفسى كنت باهتا ، كنت محاصرا بنوع من اللعنة . وقررت أن أقوم برد فعل . مجىء ابن كان وحده كفيلا بمنحى السعادة والحياة . فعملت فكرة انجاب هذا الابن ، رغم أنها مخالفة للمشيئة الالهية ، على تغيير حياتى . ظللت نفس الشخص ازاء أمك وأخواتك ، ظللت لا مباليا ولا أرضخ بسهولة . لكنى كنت فى وضع أفضل مع نفسى . لم أعد أذهب الى المسجد لاعداد خطط للتدمير . كنت أعد خططا أخرى ، لكى أؤمن لك الهناء ، لكى أحلم بالتفكير فيك . كنت أتخيلك كبيرا وجميلا . لقد وجدت بداية فى ذهنى ، وبعد ذلك ، بمجيئك الى العالم ، غادرت بطن أمك دون أن تغادرى ذهنى ، ومكثت به طوال حياتك ، حتى الآونة الأخيرة ، نعم كنت أتخيلك كبيرا وجميلا — لست كبيرة ولا يزال جمالك لغزا .. كم الساعة الآن ؟ لا ،

لا تخبريني ، فأنا أعرف الوقت حتى وأنا نائم ، انها حوالى الثالثة ودقائق ، فقد أنجز الملائكة نصف عملهم • انهم يمضون دائمـا اثنين اثنين • خاصة لقبض الروح • يهبط أحدهما على الكتف اليمنى ، والآخر على اليسرى ، وبالحماس نفسه يأخذان الروح بحركة بطيئة ولطيفة ، الى السماء • لكنهما فى هذه الليلة ينظفان • لا وقت لديهما للاهتمام بشيخ فى رمقه الأخير • لا تزال أمامى بضع ساعات لأتكلم معك ، حتى شروق الشمس بعد صلاة الفجر ، وهى صلاة قصـيرة ، لمجرد تحية بشـائر النور •• آه ! كنت أحدثك عن ولادتك •• أى فرح، وأية سـعادة • عندما نادتنى المولدة لكى أتأكد من احترام التقاليد ، رأيت — لم يكن تخيلا أو اعتقادا — بل رأيت بين ذراعيها طفلا لا طفلة • كان الجنون قد تمكن منى • لم أر فيك مطلقا ، لم أر على جسدك الصفات الأنثوية • كان العماء كليا • ماذا يهم الآن • انى أحتفظ بداخلى ، والى الأبد ، بذكرى ميلادك الرائعة • فى الظاهر ، ظللت ما أنا عليه ، تاجرا ثريا سعيدا بهذا الميلاد • وفى العمق ، فى ليالى عزلتى ، كنت مجابها بصورة المسخ التى لا تطاق • آه ! كنت بالطبع أذهب وأعود • لكن الألم كان يدمر قواى المعنوية والجسدية من الداخل • الشعور بالاثم ، ثم الخطأ ، ثم الخوف • كل هذا كنت أحمله بداخلى • وهو عبء ثقيل للغاية • انصرفت عن الصلاة ، لأن الشجاعة كانت تنقصنى • وكنت أنت تشبهين فى ثوبك النورانى ، أميرا صغيرا ، طفلا مختلفا عن الطفولة البائسة • لم يكن واردا العودة الى الوراء والكشف عن كل شىء • كان من المستحيل اعطاء الحقيقة حقها ، الحقيقة يا بنى ، يا بنيتى ، لن يعرفها أحد • فالأمر ليس سهلا • والغريب أن اقتراب الموت يجعلنا واضحين • ما أقوله لك لا يصدر عنى ، انى أقرأه ، آتهجاه على صراط أبيض تقف عليه الملائكة • أراها • ينبغى أن أخبرك كم كرهت أمك • لم أحبها أبدا • أعرف أنك تساءلت عن

ثمة حب كان بين أبيك وأمك ؟ الحب ! ان الأدب ، والشعر خاصة ، يتغنى بالحب والشجاعة . كلا ، ولا حتى الرقة . كان يحدث لى أن أنسى تماما وجودها واسمها وصوتها . النسيان التام وحده هو الذى كان يمكننى أحيانا من تحمل الباقى . والباقى هى الدموع . لعلك لاحظت بحياء البكاء الصامت لديها . وانى أعترف لها بهذه الصفة على الأقل . فالدموع كانت تنساب على وجنتيها دون أن يبدو على وجهها أدنى تعبير . تبقى لها الدموع الصامتة اذن . ثم ذلك الوجه الذى كان باستمرار ، محايدا ، مسطحا ، والرأس المغطى بخمار ، والبطء الدائم فى المشى والأكل . فلم تكن تصدر عنها مطلقا ضحكة أو ابتسامة . أما أخواتك فكن جميعا يشبهنها . ان الغضب يستبد بى ، أشعر بالحمى تتزايد ، وعلى أن أتوقف عن ذكر هذه الأسرة . وأما أنت فقد أحببتك بقدر ما كرهت الأخريات . لكن هذا الحب كان ثقيلا ، مستحيلا . أنجبتك فى النور ، فى فرح داخلى . وفى ليلة واحدة لم يعد جسد أمك قبرا ، أو واديا باردا . بعث بفعل حرارة يدى ، وصار روضا عاطرا . ندت عنها للمرة الأولى صرخة فرح أو متعة . وعلمت وقتها بأن طفلا سيولد من ذلك العناق على غير العادة . كنت أومن كثيرا بالأمنيـات التى تسكننا وبتأثيرها لحظة مباشرة عمل هام . وبدءا بتلك الليلة ، قررت أن أهتم بأمك . ثم الحمل بشـكل طبيعى . وعند عودتى ذات يوم فوجئت بها منهمكة فى رفع صندوق ملىء ، فهرولت لأمنعها ، ففى ذلك خطر على طفل النور الذى كانت تحمله ، لى . وبعد الوضع ، كما تعرفين ، لم أعرها أى اهتمام . عادت علاقتنا الملفوفة بالصمت والدموع والتنهدات الى سابق عهدها . كنت معك طوال الوقت . وكانت هى المثقلة البدينة ، تنعزل فى غرفتها لا تتكلم . وهـذا الوضـع كان على ما أعتقد يزعج أخواتك رغم اعتكافهن . كنت أراقب وقت حلول المأساة . ألعب لعبة اللامبالاة . ولم أكن أصطنع

شيئا • كنت مباليا بالفعل • وكنت أحس بأني غريب في بيتي • وكنت أنت بهجتي ونوري • تعلمت كيف أهتم بطفل ، ولم يكن هذا دارجا عندنا • كنت أعتبرك يتيم الأم • وبعد الختان والتنكر بدأت أفقد صوابي • كانت الريبة قد لوثت عاطفتي فأخذت أنعزل بدوري • أخذت أغرق في الصمت • وأنت ، غير مكترث ، كنت تتنقل من غرفة الى أخرى • وكنت تبتكر ألعابا . بمفردك ، حتى اللعب بالدمية • وتتنكر في هيأة بنت ، ممرضة وأم ، كنت تحب التنكر • وكم ذكرتك بأنك رجل صغير ، طفل • كنت تستهزىء بي • تسخر مني • وكانت الصورة التي كونتها عنك تضيع ثم تعود مشوشة بألعابك • كانت الريح ترفعها كغطاء موضوع على كنز ثم تحملها الريح القوية ، وهنا تلوحين مضطربة ، مذعورة ، ثم تستردين سكينتك •• أية حكمة كانت في ذلك الجسد الصغير الذي كان يفلت من كل المداعبات • هل تذكرين أشكال قلقي عندما كنت تلعبين لعبة الاختفاء ؟ كنت تختبئين في الصندوق الخشبي الملون ، منذ أن عرفت بأن الله في كل مكان ، وأنه مطلع على كل شيء ويرى كل شيء ، كنت تخشينه أو كنت تتصنعين ذلك ، لم أعد أعرف ••

عند هذا التشكك أغمض عينيه • كان وجهه ناحية وجهي • وكان نائمـا • كنت أراقب أنفاســه الضعيفة التي تكاد تحرك البطانية الصوف البيضاء السميكة • كنت متيقظة أنتظر الرمق الأخير ، النفس الأخير الذي يخرج الروح • فكرت في أن أفتح النافذة قليلا لتمكينها من المرور • وفي اللحظة التي كنت أتأهب فيها للنهوض ، تعلق بذراعي ، وكان ضوء الشمعة يخبو • وكان الصباح يقترب وئيدا من السماء • أفلت النجوم ولا شك وأنا أسترجع ما كان يقصه علي • أي غفران كان علي منحه له ؟ غفران القلب أم العقل أم اللامبالاة ؟ كان القلب قد أصبح قاسيا حقا ،

والقدر اليسير من الانسانية الذى كان باقيا ، كنت أحتفظ به كاحتياطى ، وكان العقل يمنعنى قبل أى شىء من مغادرة هذا الرجل فى تفاوضه مع الموت ، أما اللامبالاة فلا تعطى شيئا وتعطى كل شىء ، فضلا عن أنى لم أكن فى تلك الحالة من اهمال الذات • كنت مضطرة لسماع الأقوال الأخيرة وحراسة نومه • كنت أخشى أن أغفو وأستيقظ على الموت • بينما كانت التراتيل القرآنية قد توقفت فى الخارج • وكان الأطفال قد عادوا الى بيوتهم • كذلك انتهت الصلوات • وليلة القدر تتهيأ لإعادة النهار للمدينة • فالضـوء المعتدل والنافذ غمر الروابى ببطء ، وأيضا الشرفات والمقابر • ودوى مدفع شروق الشمس معلنا بداية الصـوم • استيقظ أبى مذعورا • ولم يعد الخوف على وجهه ، بل الهلع • كانت ساعته قد دنت كما يقال • لقد شهدت للمرة الأولى فعل الموت • لم يكن ينسى شيئا ، يروح ويجىء فوق الجسد الممدد • ويحاول المقاومة كل كائن • وأبى كان يستعطف بالنظر ، يطلب ساعة أخرى ، دقائق أخرى ، وكان لديه ما يقوله لى :

– غفوت ورأيت صورة أخى ، كان وجهه نصف مصفر ونصف مخضر ، ويضحك ، أعتقد أنه كان يستهزىء بى ، وزوجته تقف وراءه تدفعه ، وهو يهددنى • كنت أود أن أتجنب محادثتك فى هذه الليلة عن هـذين الوحشين • لكن لا بد من تحذيرك من ضراوتهمـا وشراستهما • ان دمهما يتغذى على الحقد والخبث • انهما مخيفان ، بخيلان وبلا مروءة ، منافقان محتالان وبلا كرامة •• يقضيان حياتهما فى جمع المال واخفائه • جميع الوسائل صالحة لهما ، لا يتراجعان أمام أى شىء • كان أبى يشعر بالخزى من هذا الابن ، وكان يقول لى : « من أين ورث هذا النقص ؟ » •• انه عار العائلة • يتقدم على أنه فقير ، فينتظر نهاية السوق حتى يشترى الخضر بأرخص ثمن • يساوم فى كل شىء ، يشكو ويبكى اذا لزم الأمر ، ويعلن

أمام الجميع بأني سبب شقائه ، وفقره • سمعته مرة يقول لواحد من الجيران : « لقد سرق أخي الأكبر نصيبي في الميراث ، فهو جشع وبلا رحمة ، وحتى اذا مات فلن يكون من حقي أن أرثه ، فقد أنجب مؤخرا طفلا • أفوض أمري الى الله ، هو وحده الذي سينصفني هنا وهناك ! •• » هل تعلمين أنه كان يحدث لهما ، في مناسبات قليلة جدا ، أن يدعوانا للغذاء ، كانت زوجته تطبخ اللحم الذي تغرقه في كم هائل من الخضر ، وكان اللحم من سوئه يبقى بأكمله في الطبق • وفي اليوم التالي ، كانت تعيد طبخة فهما ليسا بمغفلين ، لا هي ولا هو كانا يخجلان • احذري ، ابتعدي عنهما ، انهما شريران ••

صمت برهة ثم عاد يتكلم بسرعة • لم أكن أفهم كل ما يقول • كان يود القول ما هو أساسي ، لكن بصره كان يزوغ ، وكان ينصرف الى الجهة الأخرى ، ثم يعود ليرتمي علي ، وكانت يده • لا تزال تشد على يدي :

ـ أطلب أن تغفري لي •• وبعد ذلك يمكن لبارىء روحي أن يأخذها حيث يشاء ، الى جناته المزهرة وأنهاره الهادئة ، أو أن يلقي بها في فوهة بركان • لكن قبل ذلك ، امنحيني نعمة النسيان • هذا هو الغفران • أنت الآن حرة • امضي لحال سبيلك • غادري هذه الدار الملعونة ، ارحلي ، عيشي ! •• عيشي ! •• ولا تلتفتي لرؤية النكبة التي سأخلفها • انسي وعيشي ما وسعك العيش •• انسي هذه المدينة • في هذه الليلة عرفت أن قدرك سيكون أفضل من قدر جميع نساء هذه البلاد • أنا متيقظ ولا أختلق شيئا • أرى وجهك مكللا بهالة نور خارق • لقد ولدت في هذه الليلة ، السابعة والعشرين •• انت امرأة •• دعي جمالك يوجهك • لم يعد هناك ما يدعو للخوف • ليلة القدر تسميك زهرة ، زهرة الزهور ، نعمة ، طفلة خلود ،

وأنت الزمن المتوقف فى منحدر الصمت ٠٠ فى ذروة النار ٠٠ بين الأشجار ٠٠ فى وجه السماء الذى يهبط ٠٠ ينحنى ويأخذنى ٠٠ انت التى أرى ، يدك التى تمتد ، آه ! يابنيتى ، انك تأخذيننى معك ٠٠ لكن الى أين تمضين بى ؟ اننى مرهق جدا حتى ليصعب على أن أرافقك ٠٠ أحب يدك التى تقترب من عينى ٠٠ انه الظلام ، والبرد ٠٠ أين أنت ، وجهك ٠٠ لم أعد أرى ٠٠ انك تجذبيننى ٠٠ هل هو الثلج ، هذا الحقل الأبيض ؟ لم يعد أبيض ٠٠ لم أعد أبصر شيئا ٠٠ وجهك ينقبض ، أنت غاضبة ٠٠ أنت تتعجلى ٠٠ هل هذا هو غفرانك ؟ يازه ٠٠٠ رة ٠٠

تسرب شعاع الشمس الى الغرفة ٠ كل شىء كان قد انتهى ٠ سحبت يدى من يده بصعوبة ٠ فردت الغطاء على وجهه ، وأطفأت بقايا الشمعة ٠

(٣)

يوم رائع جدا

منذ تلك الليلة الاستثنائية ، اصطبغت الأيام ، يا أصدقاء ، بألوان جديدة ، وتلقت الجدران أناشيد جديدة ، وندت عن الحجارة أصداء كانت مكتومة من مدة طويلة · الشرفات غمرها ضوء ساطع تماما وأخلدت المقابر للصمت ، المقابر أو الموتى · الموتى أو مرتلو الآيات القرآنية المحفوظة بشكل سيء ، المرتلة بشكل سيء ، أو المرتلة بيقين جائع يتمايل لكي يوهم بأن الرسالة في طريق قويم · كل شيء أخلد للهدوء ، أو بالأحرى تغير كل شيء ·

كل شيء أخلد للهدوء ، أو بالأحرى تغير كل شيء · وكان من الصعب على الا أربط بين هذا الشيخ الذى ترك الحياة مؤخرا وهذا الضوء المبهر وقد غمر الكائنات والأشياء ·

كيف لا يمكن الاعتقاد بأن ليلة القدر ليلة مهيبة بالنسبة للبعض ، وحرة بالنسبة للبعض الآخر · فالأحياء والموتى يلتقون فى هذه المحطة حيث تغطى الصلوات الضجيج · من يستطيع ،

يا أصدقاء ، أن يميز في هذه الليلة بين الأشباح والملائكة • بين القادمين والراحلين ، بين ورثة الزمن ومحدثي نعمة الفضيلة ؟

تخيلوا عربات تتكدس فيها أجساد لا يزال بعضها يتنفس ولكنها أرادت أن تكون في الرحلة لأسباب عديدة ، انها تهز الجدران عند مرورها ، تسحبها أفراس قوية تتوجه نحو أماكن مجهولة • في هذه الليلة تردد القول بأن الجنة للمهيئين للرحيل ، وفي كل الأحــوال للذين يمنحون ما تبقى في عمرهم من أيام وأسابيع ، قربانا لهذه الليلة التي تغيب فيها النجوم ، وتفتح السماء وتدور الأرض أسرع • فالذين كانوا يجيئون ويتمددون فوق العربات لم يكونوا يملكون ســوى أيام ، يوم أو سبعة أيام ، وكان الآخرون يتمسكون بالمال والوهم •

كنت أراقب الموكب ، من النافذة الصغيرة ، وكان على مغادرة المدينة قبل شروق الشمس فصباح هذا اليوم السابع والعشرين من الصيام يشبه الأيام الأخرى ، فلا أثر واضح للتنظيف الليلي • كنت أنظر الى أبي ، بجسده النحيل ، الفارغ من قوت ، وكأنه مادة خام ، وكنت أقول لنفسي بأن روحه بشيء من الحظ يمكن أن تدخل في احدى العربات الأخيرة • جلست على حافة السرير متعبة ولكني مستريحة ، ثم انخرطت في البكاء ، ليس بأسى ولكن عن ارهاق • كنت قد تحررت ولكن الأمور لم تكن لتسير وفق ما كنت آمل •

بعد أن عدت امرأة ، أو على الأقل بعد أن اعترف بي أبي كامرأة ، كان لا يزال على أن أستمر في اللعبة ، حتى تتم اجراءات التركة والميراث • كانت الدار خراب • وكأن الجــدران تعرضـت لتشققات جديدة في تلك الليلة • وفجأة ، آه ! تغير كل شيء في ساعات • أخذت أخواتي تتظاهرن بالنواح ، وأدت أمي ، المتدثرة

بالبياض ، دور الحزينة ٠ وكان أعمامى منهمكين فى اعداد الجنازة ٠ وأنا ، حبيسة الغرفة ، أنتظر ٠

كان يوما مشمسا من أيام الربيع ٠ والربيع عندنا لامبال ٠ فهو يزهر الأوراق ، ويؤكد ألوان الحقول ، ويضيف الى السماء زرقة ، ويملأ الأشجار بالثمار ، ويشيح بوجهه عن النساء التعسات٠ وكنت أنا أيضا تعسة ٠ لكنى قررت فى ذلك العام أن أطرد عن ذهنى كل ما كان يعذبنى ويسكب الحبر الأسود على أفكارى ــ كنت نادرا ما أضحك ولم أكن أمزح على الاطلاق ٠

أيها الأصدقاء ! يمكننى أن أعترف لكم اليوم بهذا ٠ لقد كان الأمر قاسيا ! أن أكون مرحة كان معناه تغيير الوجه ، وتغيير الجسد ، وتعلم حركات جديدة ، والمشى برشاقة ٠ الحرارة غير العادية فى ذلك اليوم أكدت أن الربيع لم يصل الى الدار ، ولكنه كان حوايا ٠ فتصل من الحدائق المجاورة والدور روائح وعطور ٠ أما فى دارنا فقد كان للحزن رائحة حامية وخانقة ٠ البخور الذى كان يحرقه أعمامى من النوع الردىء ٠ ولم يكن العود القمارى سوى نوع من خشب ممزوج بعطور مشئومة قام الحانوتى المتعجل دائما ، بغسل الميت بسرعة ، ثم تجادل مع عمى الذى ساومه على أجره البسيط ٠ وكان من المخجل حقا سماع تراتيل قرآنية تتخللها المساومات بين الحانوتى وعمى ٠ كنت أضحك لأن الموقف صار هزليا :

ــ تغسلون الميت وتنظفون جيوبنا !

ــ من المؤكد أنه يوم تموت ، لن يأتى أحدنا لغسلك ، ستدفن بقذارتك ، فاذا كنت ستدخل الجنة فستطرد لقذارتك ! هذا هو عقاب البخلاء ٠٠ كما أن الله لا يشملهم بعفوه ٠

غضب عمى وتمتم بدعاء ثم دفع الأجر المطلوب ٠ كنت أراقبه من النافذة وأنا سعيدة ٠ جذبت احدى الأيدى عمى الى احدى الزوايا٠

يد زوجته ، البارعة فى البخل والحقد والدسيسة · امرأة مخيفة · سأحدثكم عنها فى يوم آخر ، لأنها تستحق ، هى الأخرى ، أن نكشفها · لقد توعدت زوجها لأنه رضخ ·

وطوال يومين ، كان على الاستمرار فى تمثيل دور الابن · ارتديت الأبيض ونزلت لأرأس المأتم · كنت أضع نظارات سوداء ، وأغطى رأسى بغطاء جلبابى · لم أتفوه بكلمة واحدة · كان الناس ينحنون لتحيتى وتقديم العزاء لى · وكانوا يقبلون كتفى خلسة · كنت أرهبهم جميعا ، وهو أمر طبيعى · وفى المسجد الكبير ، اخترت بالطبع لأؤم صلاة الجنازة · فقمت بذلك بسعادة داخلية ومتعة مستترة · فاحدى النساء تأخذ بثأرها تدريجيا من مجتمع رجالى بلا مقاومة تذكر · وكان ذلك حقا بالنسبة لرجال العائلة ، على أية حال كنت وأنا ساجدة لا أقدر على منع نفسى من التفكير فى الرغبة الحيوانية التى كان جسدى ـ البارز فى هذا الوضع ـ سيثيرها فى هؤلاء الرجال لو علموا بأنهم يصلون خلف امرأة · ولن أتكلم هنا عن الذين يستثارون لمجرد رؤية مثل هذا الوضع ، للأسف !

تمت شعائر الجنازة بسلام · كل شىء تم بشكل لائق ، أما أروع صورة أحتفظ بها من ذلك اليوم فهى لحظة الوصول الى المقبرة · شمس ساطعة غمرت المكان بربيع أبدى ، فالقبور مغطاة بالعشب البرى يانع الخضرة ، والخشخاش المبهور بالضوء ، التى نثرتهما يد مجهولة · كانت المقبرة كحديقة تهيىء فيها أشجار الزيتون المعمرة ، السلام للأرواح ، فوجودها ثابت وان كان متواضعا · وغفا أحد مرتلى القرآن فوق أحد المقابر · وأخذ الأطفال يلعبون فوق الأشجار · واختفى عاشقان خلف شاهد مرتفع جدا ليتمكنا من قبلة دون أن يراهما أحد · وطالب شاب يقرأ « هاملت » وهو يسير ويقوم بحركات عديدة · وترجلت احدى النساء فى

ثياب العرس ، من فوق حصان أبيض . وعبر المقبرة فارس على فرسه يرتدى حلة زرقاء من الجنوب ، ويبدو عليه أنه يبحث عن شخص ما .

تفرق الموكب عند وصوله الى هذا المكان . كان البعض يخفون أعينهم بأذرعهم ، لعدم مقدرتهم على تحمل ضوء بتلك الكثافة . ونسى الجميع الميت . فأخذ اللحادون يبحثون عن القبر الذى أعدوه . وشرع الأطفال الذين تبعوا الموكب من الأزقة فى الرقص ، ثم اقتربوا ، كما فى مشهد للباليه ، من أبى ، ورفعوه ، وأخذوا يدورون حول أنفسهم وهم يدندنون بلحن افريقى . ووضعوه بايماءات وحركات بطيئة داخل أحد القبور التى تم حفرها فى الصباح . هرول اللحادون مروعين ، وأبعدوا الأطفال وهم يهددونهم بالفؤوس والمعاول . أقبلت العروس نحوى ووضعت على كتفى ثوبها الفاخر الموشى بخيوط الذهب . وهمست فى أذنى : « انه ينتظرك على فرس بيضاء مرقطة بالرمادى .. اذهبى ، الحقى به ، لا تسألينى لماذا ، اذهبى وكونى سعيدة .. » ثم اختفت . هل كانت خيالا ، أم صورة ، أم جزءا من حلم ، أو فاصلا من الزمن منفصلا عن ليلة السابع والعشرين ، أم صوتا ؟ كنت لا أزال مفتونة عندما أحاطت ذراع قوية بخصرى ورفعتنى . وحملنى الفارس الوسيم على فرسه ولم يعلق أحد وأنا أتعرض للاختطاف كما فى الحكايات القديمة . عبر المقبرة راكضا وتمكنت من القاء نظرة خاطفة على جثمان أبى الذى كان اللحادون يخرجونه من القبر لكى يدفنوه وفق أحكام الشريعة الاسلامية . ولمحت أيضا أعمامى وقد أصابهم الهلع وهم يخرجون متقهقرين من المقبرة .

كان يوما رائعا للغاية .

(٤)

الحديقة العطرة

– ياشمسا على قمر ، يا قمر الأقمار ، يا نجمة مليئة بالليالى والضـــياء ، هذا الثوب الموشى بخيوط الذهب هو سكنك ، سقف دارك ، الصوف الذى ينسج أحلامك ، الغطاء السميك لليالى الشتاء الطويلة عندما أغيب ٠٠ لكنى لن أتخلى عنك أبدا ، فقد انتظرت طويلا طويلا فما عاد بامكانى تركك ولو لليلة واحدة ٠

استمرت الرحلة طوال اليـــوم ٠ كان يحدثنى بين الحـــين والآخر ، مرددا الكلمات نفسها ، وهو ينادينى أحيانا بأميرة الجنوب وأحيانا أخرى بقمر الأقمار وكذلك بأول ضياء الصباح ٠ ملفوفة بالثـــوب وأنا خلفـــه ، وذراعاى تطوقان خصره ٠ كانت اهتزازات الفرس تجعل ذراعى المتشابكتين تداعبان بطنه الصلب بحركة هابطة من أعلى الى أسفل ٠ كان ينتابنى احساس غريب استسلمت له ، دون أن أسأل نفسى ، كما يتواصـــل حلم فى الغفوة الصغيرة ٠ كانت أول مرة أركب فيهـــا جوادا ٠ وهكذا جمعت الانفعـــالات بتلقائية داخلية تدفىء كل جسدى ٠ كانت المغامرة تتمثـــل بداية

فى هذا الشعور بالغرابة ، تتولد عنه المتعة . كان رأسى مستندا على ظهره ، وقد أغمضت عينى وأنا أهمس بلحن طفولى . فى الليلة الماضية كنت أساعد روح محتضر على بلوغ السماء ، وها أنذى فى هذا اليوم أضم بذراعى شخصا مجهولا ، ربما كان أميرا مبعوثا من قبل الملائكة فى ليلة السابع والعشرين ، أميرا أو طاغية ، مغامرا أو قاطع طرق حجرية ، لكنه رجل ، جسد رجل ، لمحت عينيه لمحا ، فقد كان ملثما .. هو واحد من الرجال الصحراويين الملقبين بالزرق .

ما كاد يتم اعتاق العبدة حتى اختطفت لتدخل ربما سجنا جديدا ،أو قصرا مرتفع الأسوار ، شاهقا ، يحرسه رجال مسلحون قصرا لا أبواب له ولا نوافذ ، وانما حجر أو حجران يتحركان ليسمحا بعبور الفارس وغنيمته ..

كنت أغفو ، أحلم ، أنسى . وكان الهواء العليل يداعب وجنتى . انسابت على وجهى دمعة فرح بسبب الجو الندى . كانت السماء زرقاء ، وحمراء ، وبنفسجية . كانت الشمس على وشك المغيب . فى ذلك اليوم من الصيام لم أشعر بجوع ولا بعطش . توقف فارسى لحظة ثم قال لى ، كما لو كنت أعرف عاداته .

ـ سنتوقف قليلا عند الأولاد . ويمكننا أن نفطر معهم اذا كان لنا حظ .

ـ أى أولاد ؟

لم يجبنى .

كانت القرية تقع بواد صغير يتم الدخول اليه عن طريق شبه سرى . كانت توضع حواجز يحرسها بعض الأطفال . كان

لابد من النطق فى كل مرة بكلمة السر وهى عبارة عن بيتين من الشعر ، من قصيدة يحفظها فارسى كاملة :

ولما أن تجهمنى مرادى جريت مع الزمان كما أرادا
وهونت الخطوب على حتى كأنى صرت أمنحها الودادا

للوهلة الأولى لم أتعرف على شعر أبى العلاء المعرى · كنت قد قرأت فى مراهقتى « رسالة الغفران » ، لكننى لم اتذكر تلك الأبيات · أثناء السهر ، أقبل أحد الأطفال نحو فارسى وقال له :

- أيها الشيخ ، كيف اذن وجدت الجحيم ، ماذا قال لك الموتى ، وماذا فعل بك المعذبون ؟

- بعد العشاء سأروى لكم رحلتى ·

فى تلك القرية ، لم يوجد غير الأطفال · كنا الراشدين الوحيدين · كانت الدار المبنية بالطين الأحمر غاية فى البساطة · وكان يسكنها مايقرب من مائة طفل ، ذكورا واناثا · كانت حديقه السطح رائعة التنسيق والاعداد · وكانوا يعيشون بالاكتفاء الذاتى ، بعيدا عن المدينة ، بعيدا عن الطرق ، وبعيدا عن الوجود ذاته · نظام كامل ، بدون درجات ، بدون شرطة ولا جيش · ليست لديهم قوانين مكتوبة · كما لو كانت جمهورية صغيرة وحقيقية ، يحلم بها أطفال ويعيشونها كنت مأخوذة · وكان فارسى يشعر بلهفتى للمعرفة والفهم · اختلى بى ورفع لثامه فرايت وجهه لأول مرة · وبينما كان يحدثنى ، كنت أدقق فى ملامحه : عينان كبيرتان بنيتان ، حاجبان كثيفان متناسقان ، فم دقيق ، شارب غزير ، بشرة كامدة ، شديدة السمرة · كان يتحدث برقة ، دون أن ينظر الى بشكل مباشر :

– عندى سبعة أسرار ، ولكى أستحق صداقتك وأنال مغفرتك لاختطافى لك بفظاظة ، سأبوح لك بها واحدا بعد الآخر . وسيستغرق هذا بعض الوقت ، هو وقت تعارفنا ، واتاحة الفرصة للصداقة لتأخذ بمجامع قلبينا . أما سرى الأول فهو هذه القرية . فلا أحد يعرفها . ولا يعيش فيها الا من تجرع قلبه الألم ولم يعد يغذيه أى وهم حول الجنس البشرى . وعموما فليس هذا تفسير لجذور السر ، لكنى مدين لك بحد أدنى من الايضاح حتى أهدىء قلقك .

– لكنى غير قلقة .

كان ذلك صحيحا . فلم تعترنى أية خشية فحسب ، بل استقر فى نفسى شعور عميق بالتوافق بين الصورة وما تعكسه . بين الجسد وظله ، بين حلم كان يملأ ليالى عزلتى وقصة كنت أعيشها بفضول فرح . كنت مثل طفلة ترحل للمرة الأولى . وعلى كل كانت تلك الليلة بداية مغامرة مثيرة . كان على فارسى الذى يناديه الجميع بالشيخ أن يقدم تقريرا عن مهمته . فهو يعود الى القرية بعد غياب طويل .

اقترب من طفل أصهب ، لا يتجاوز عمره العشر سنوات ، له عينان مستديرتان ، قال لى :

– مرحبا ! أنا مندوب الصداقة ، واذا لزم الأمر فى الحب .

– ما هى وظيفتك ؟

– لكى تدركى جيدا مجريات الأمور فى هذه القرية ، عليك بنسيان المكان الذى جئت منه ، وطريقة حياتك هناك ، فى الجهة الأخرى للوادى . اننا نعيش هنا تحت نظام المبادىء والمشاعر .

وأول مبدأ هو النسيان . كونك عشت مائة عام أو مائة يوم ، فبدخولك الى هنا ، عليك أن تمسحى كل شيء من ذاكرتك . واذا لم تتمكنى من ذلك ، فلدينا أعشاب تساعدك .

ـ لكن ، ماذا تفعل هنا ؟

ـ أزرع الأعشاب التى تساعد المشاعر على الكمال والانسجام. فما هو مشترك هنا بيننا هو أننا جئنا جميعا من المعاناة ، الظلم ، ونحن محظوظون بايقاف الزمن وازالة الأضرار . هذه القرية فى الواقع ، سفينة ، تمخر عباب مياه صاخبة . لم يعد لدينا أى رباط يشدنا الى الماضى ، الى الأرض الثابتة . فالقرية جزيرة . نبعث الشيخ من حين الى آخر فى مهمة استطلاعية . ويعود عموما مصحوبا بأطفال مهجورين أو هاربين . وهذه هى المرة الأولى التى يعود الينا فيها بأميرة . فمرحبا بك !

قبل الأصهب يدى واختفى . ثم قدمت نحوى صبية سمراء مجعدة الشعر ، من السن نفسها . كنت أمثل أعجوبة . ظلت تنظر الى دون أن تنطق بكلمة واحدة ، ودارت حولى ومرت بيدها على ثوبى ثم اقتربت منى كما لو كنا متعارفين منذ زمن طويل ، وهمست فى أذنى :

ـ لاتسلمى نفسك للشيخ ، انه وسيم وفاتن . سترين مع الزمن والتجربة ، ستعرفين حدودك مع الرجال . هنا ، المشكلة غير موجودة . اننا أطفال وسنبقى كذلك . هذا ملائم وبسيط .

وعندما لمحت الشيخ فرت وهى تقول :

ـ أنا أيضا أخذت أنادى فارسى بالشيخ ، رغم أنه لم يكن مسنا ، ولم تكن له لحية بيضاء ، بل كانت له هيأة رياضى نشط .

جاء العشاء ، حساء غليظ ، وتمر وتين مجفف • بعد لحظة صمت ، سألني الشيخ عما قاله لي الأصهب ثم الصبية •

– لا شيء • أو قل أشياء غريبة ومتهافتة •

جعلني الاعياء أنام في مكاني ، ملفوفة في الثوب • وكانت ليلة ملأتها أحلام متداخلة • كان كل شيء يختلط في ذهني ، وعند استيقاظي في الصباح ، كنت عاجزة عن التمييز بين الأحلام والرؤى • فالخضرة ، والزهور ، الأشـــجار ، والطيور ، والجداول ، كانت تثير خيالي ، وتدغدغ حواسي ومداركي • وكنت قد قررت على كل حال العدول عن التمييز بين الواقعي والخيالي ، وخاصـــة ماهو ملموس في مكان وجودي وما أفعله وبصـــحبة مـــن أعيش تلك اللحظات • أبصرت من نافذتي الشيخ وهو يحمل خشبا ، بينما كان الأطفال يحرثون الأرض وينظفون القرية أو يعدون العشاء • كان لكل منهم عمل يقوم به •

خرجت لأزور القرية في ضوء النهار ، كان البعض يبتسم لي ، والآخرون يتوقفون لتحيتي بتضرع • كنت أمشي بشكل طبيعي ، بدون توتـــر أو اكتراث بالنظرات • وكم كانت دهشتي عظيمة ، عندما أحسست أنني أسترجع رشاقة فطرية ! كان جسدي يتحرر من نفسه • كان خيالا وخيوطا تنحل تدريجيا ، كنت أحس من خلال جسدي أن عضـــلاتي تتخلص من صلابتها • كان التحول يطرأ وأنا أسير • لم يعد يطوق صدري شيئا • صرت أتنفس أعمق من ذي قبل • مررت يدي على نهدي الصغيرين • كان ذلك يمتعني • كنت أمدهما على أمل أن يكبرا ، أن يخرجا من ثقبيهما ، أن تبرزا بكبرياء • وتذكرت الزمن الغابر عندما كانت المرأة البدينة التي تعيش مع الجيران ، تأتي من حـــين الى آخر لمســـاعدة أمي • كانت

تأخذني بين ذراعيها ، وتسند رأسي على صدرها وتضمني اليها ، بسعادة ورغبة • كانت محرومة من الأطفال وكان زوجها قد هجرها الى زوجتين أخريين ، وكانت تحملني فوق ظهرها وتربت على وجنتي • كنت شغلها ، لعبتها • كانت تعرق ولم تكن تنتبه الى أنها تثير تقززي • لم أكن أنطق بكلمة • وفي الواقع ، كان ذلك اللعب ينقلني من الرفاهية القصوى والعناية الشديدة اللتين كنت محاطة بهما في العائلة وذات يوم عاد أبي على غير عادته ورآني بين يديها ، فاندفع ، وانتزعني وصفع المرأة المسكينة •

كنت ألمس نهدي • فتحت قميصي لكي أهبهما لهواء الصباح • الهواء العليل • كان جلدي مقشعرا • كان الهواء يعبر جسدي من أعلى الى أسفل ، وأخذ قميصي ينتفخ حللت شعري — لم يكن طويلا جدا ولكن الهواء كان نافعا له • كنت أسير بدون وجهة • ثم اكتسحتني رغبة مجنونة ، فخلعت ثوبي لكي أرضي الهواء ، لكي أرضي نفسي وأحس بذلك النسيم الصباحي البارد يمر فيوقظ حواسي • كنت في دغل وكانت الطبيعة ساكنة ، كنت أخطو الخطوات الأولى لامرأة حرة ، كانت الحرية بمثل بساطة المشي صباحا والتخلص من الأربطة دون مساءلة النفس • كانت الحرية هي تلك العزلة السعيدة التي كان جسدي يمنح فيها نفسه للهواء ثم للضوء ثم للشمس • نزعت نعلي ، كانت قدماي اللينتان تحطان على الحصى المدبب ، ولم أكن أشعر بالألم • وعندما وصلت الى متسع خارج الدغل ، جلست على ربوة من التراب الرطب ، فسرت في جسدي نداوة ممتعة ، أخذت أتمرغ في أوراق الشجر ، فأحسست بدوار خفيف في رأسي ، فنهضت وجريت حتى البركة • لم أكن أعلم أن وراء الدغل بركة وعين ماء • لكن جسدي كان يتزود بغرائز جديدة ، بردود أفعال توحي بها الطبيعة • كان جسدي في

حاجة الى الماء ، هكذا اندفعت وغطست فى البركة . لم يكن قد سبق لى أن تعلمت السباحة . كدت أغرق ، فأمسكت بأحد الأغصان ووصلت الى عين الماء ، وهناك جلست معرضـــة ظهرى لتدفق الماء البارد الصافى ، كنت أحلم ، سعيدة ، مجنونة ، جديدة تماما ، مهيأة ، كنت الحياة والمتعة والشهوة ، كنت الهواء فى الماء ، الماء فى الأرض ، الماء المطهر ، الأرض المشرقة بالعين ، كان جسدى يرتجف من البهجة . وكانت ضربات قلبى قوية ، كنت أتنفس بطريقة غير منتظمة ، فلم يسبق لى أن شعرت بهذا القدر من الأحاسيس . ان جسدى الذى كان صورة مسطحة ، مقفرة ، خربة ، تحتكرها الظاهر والكذب ، أخذ يلحق بالحياة . كنت حية . أصرخ بكل قواى ، وأصيح دون انتباه : « أنا حية .. حية .. ! عادت روحى . انها تصيح مشتعلة داخل قفصى الصدرى ، أنا حية .. حية .. ! »

غطس الأولاد عراة فى البركة وهم يضحكون وقد أحاطوا بى مرددين ورائى : « انها حية .. حية .. » وكان هنـــاك أطفال ينتظروننى فى الجرف مادين فوطة حمام بيضاء لفونى فيها وحملونى على أريكة حتى غرفتى حيث استقبلنى الشيخ ، وهو يرتدى البياض . كنت لا أزال أرتجف من البرد والانفعال . وكانت بعض الاهتزازات الصغيرة تعبرنى ، كنت متعبة وسعيدة ، مشـــدوهة ومندهشة ، وتوالت الأحداث بسرعة كبيرة . فالزمن كان قد نفذ صبره . وكنت أنا أتخطى الزمن خارج الزمن ، فى تخوم الحلم . أمسك الشيخ بيدى وقبلها ، فأسندت رأسى على ركبته . كان يداعب شـــعرى الذى كان لا يزال مبللا وهو يحدثنى :

ــ أنا سعيد لعثورك على عين الماء . كانت هى سرى الثانى . لم يعد بامكانك الآن العودة الى الوراء . ان ماء هذه العين مفيدة يقوم بمعجزات . وقد عثرت عليها بمفردك . أنت على الطريق .

ولكن لا تلتفتى ، فالنظر خلفك يمكن أن يكون خطيرا ، لن تحل عليك اللعنة كما فى الأسطورة ولن تتحولى الى تمثـال من الملح أو الرمل . لكن من الممكن أن تكونى شؤما ، والشؤم هو أن يكون المرء غلطة ، وعليه أن يتحمل قدر لا سعادة فيه ولا حقيقة ولا شهوة ، انى أعرف عم أتحدث أيتها الأميرة !

صمت الشيخ فجأة . رفعت رأسى فرأيت دموعا تنسكب على وجهه . كان يبكى فى صمت وعينـاه مغمضـتان . أحسست بقشعريرة ، نهضت ووضعت على كتفيه الثوب الموشى بخيوط الذهب . كان الرجل غاضبا . وكانت الدموع تواصل انسكابها على وجنتيه . دموع خفيفة . كانت آتيـة من بعيد . واحترت فى رصـانته وهدوئه واستسلامه لذلك الطفح الذى لم يكن بمقدوره أن يوقفه ولا أن يتحكم فيه . لم أكن أرغب فى ازعاجه بالسؤال . فوق الرف كان يوجد كتاب كبير مفتوح . كتابة دقيقة ومركزة . رسوم وأدلة وأسئلة ، اشتهيت ان أقرأ ، لكن الجرأة لم تسعفنى . فذلك أكثر من سرقة . وداهمنى هاجس عنيف : كان الشؤم يطوف حولنا ، فقد كان الحلم جميـلا أكثر من اللازم ، وكان الكابوس وشيك الحلول . اقتحم الغرفة أربعة أو خمسـة أطفال وأمرونى بمغادرة الوادى :

- أثرت دموع الشـيخ . قد تكونين واحدة من مخلوقات الماضى التى دأبت على انتزاع رمحه ، ونفسه وحياته . لابد من رحيلك قبل استيقاظه ، قبل أن يغدو عنيفا .

حاولت أن أبرىء نفسى . أن أقول لهم بأننى لم أنتزع منه شيئا ، وبأن الأمر حدث بغير سبب منى ، وبأننى لا أفهم شيئا من كل هذا ، لكن بدون جدوى . فقد كانت للأطفال نظرات انتقامية ،

مشوشة ، مليئة بالحقد والعنف · كانوا متوعدين · اقتربت من الشيخ لكي أوقظه ، فاندفع أحد الأطفال نحوى وطرحنى أرضا :

ـ دعية فى سلام ·· قد يكون محتضرا ! انه لن يختفي بعد ، لن يغادرنا لسنوات ! هكذا طردت من تلك الرياض العطرة · صدقونى ، أيها الأصدقاء ، انه لم يكن حلما ، بل حقيقة عشتها · فى تلك الليلة نمت مع الحيوانات ، فى الاصطبل الواقع خارج القرية · وقضيت الليل فى حيرة مع تراكم التفسيرات · وكلما التمست المعرفة والفهم ، كلما ازداد انطباق العتمة على ذهنى · وفى منتصف الليل ، دخل الاصطبل الطفل الأصهب ، هذا الذى استقبلنى فى غاية الرقة فى بداية تلك المغامرة ـ لم أفاجأ ، فقد كنت أنتظره ·

ـ لا تحاولى الفهم · سأساعدك على الخروج من هنا · فالشيخ رمزنا ، ومصيرنا مرتبط بمصيره · فاذا وقع فى الغواية ، سيكون فى ذلك هلاكنا · فبينه وبيننا ميثاق ، قسم بالا نبوح لأى غريب بأسرارنا السبعة · وكل سر يفشيه بمثابة قطعة من جلدنا تندثر · نفقد ألوان وجهنا ، ثم الأسنان ، ثم الشعر ، ثم الدم ، ثم العقل ، ثم الروح وأخيرا نفقد الحياة · اعلمى بأن لا دخل لك فى هذا ، بل أنت طيبة · لكن شيئا ما فيك يستثير التدمير · لا أعرف ما هو ، وانما أحس به · شؤم ما يسكنك ، بدون علمك ، يسرى ويتغذى على هزيمة الآخرين ، وكما لاحظت فنحن قبيلة خارج الزمن · وهذا مكمن قوتنا وضعفنا · والشيخ هو الوحيد الذى عليه أن يبقى غارقا فى الزمن · فهو يكبر ويصطرع ويشيخ · لهذا يغادرنا أحيانا · ويعود عموما ببذور

للزرع . وهذه المرة كنت أنت مجلوبته الى القرية . ونحن هنا في منجى من الأحياء . هذا كل ما يمكنني قوله لك . خاصية السر هى أن يظل مدفونا . ونحن السر . لهذا نعيش تحت الأرض . هذه القرية لا اسم لها ، فهى غير موجودة ، هى بداخل كل منا فقط . وعند انصرافك من هنا ، قولى لنفسك ، انك قد نجوت .

(٥)

مرايا الزمن

كيف يسير الناجون ؟ مطأطئى الرأس ، متفحصين الأرض بأعينهم ، شابكين أيديهم خلف الظهر . سالكين طريقـا يمحض الصدفة الى أن تلوح فى البعد دار مضاءة بنور خافت ؟ أما أنا فسرت دون التفات . كنت أنشد النسيان وأرغب فى الاعتقاد بأن ما حدث لى مؤخرا لم يكن سوى هلوسة ، حلم متقطع يختلط فيه كل شىء : دفن الأب وفرار المعتوقة . سرت بمحاذاة احدى الطرق دون أن أتحدث الى أحد . لم يضايقنى الأطفـال ولا الرجال الذين التقيت بهم . ومع هذا كان مظهرى غريبا ، ملابسى الرثة ووجهى المتجهم ودموعى المنهمرة . وعندما خيم الليل ، جلست القرفصـاء تحت شجرة وبكيت فى صمت ، بلا ندم أو أسى . فلا أظن أنى بكيت لموت أبى يوم دفنه .

رنت فى ذهنى فجأة عبارة ، عبارة واحدة قالتها أمى ، التى لم تكن تقول شيئا . عندما سمعتها أتذكر أن جسدى سرت فيه قشعريرة . اعترت جلدى قشعريرة سريعة .

كان ذلك فى فترة صعبة ، أحس فيها أبى بدنو أجله ، وقد يكون الاحساس بالاثم والمعصية هو الذى عجل به · كان ساخطا ، سريع الانفعال ، نافذ الصبر ، غير مبتهج · كانت الكراهية تغلى بداخله ، كراهية عنيفة وعمياء · كان يكره الجميع بلا شك ، بدءا بنفسه · لكنه كان يوقرنى بغرابة · بل كان يحبنى · كان يخرجنى عن نطاق طريقته الفظة فى الحديث · فقد كنت أتابع من نافذة غرفتى مشاهد من الشجار الذى كان ينشب بينه وبين نسوة الدار ، كان يصرخ وحده ، ويتوعد ، ويضحك من تفوقه الخاص ، وحينما صار مهووسا ، لم يعد يحتمل أدنى تقصير فى أداء الفرائض · كان على كل واحدة من النبات أن تؤدى دورا ، فاحداهن تخلع جلبابه، والأخرى تغسل قدميه ، والثالثـــة تنشفهما ، بينما تعد اثنتان أخريان الشاى · وكانت أمى مكلفة بالمطبخ · والويل للتى ترتكب أقل هفوة ! كان ينشر الرعب ولم يكن سعيدا على الاطلاق ·

عندمـا أصيب بنزلة ربو ، كان يرفض تعـاطى الأدوية ، وحينما كان تنفسه يضيق ويشرع فى الاهتزاز من جراء الألم فى الصدر ، كان يتهم العائلة كلها بسرقة نصيبه من الأوكسجين ، لم تكن قصباته هى المريضة ، بل كان حضور كل تلك النســـوة العديمات الجدوى هو الذى يسد قصباته ويعجل باختناقه ·

كان يقاوم بطاقة خارقة ، رافضا المرض والموت · كان بحاجة الى ممارسة ذلك العنف الظالم على أهله · فقد اكتشف غريزيا أن الكراهية ترياق ضد الضعف ، وهى تحفظ له مهمته كسيد مسيطر وتوقف تطور المرض · كان يحدث له أن يتحدث بمفـرده ، على اعتبار أنه لايوجد محاور مقبول فى الدار · أما أنا فكنت مستثناه · كان يود لو يفضى لى بسريرته ويحادثنى بمشاكله ، ولكن لم أكن

أعطيه الفرصة لذلك أبدا . كان تصرفه يؤلمني . كنت أفهمه ، لكن لم يكن بمقدوري تأييده او مناقشته . وخلال الشهور الأخيرة من حياته ، كنت غارقة في أزمة انتقالية . كنت أتخبط في عنفي الخاص ، مع نيتي الراسخة في الخروج من ذلك ، الخروج بطريقة أو بأخرى . لكن كما يقول المثل : « دخول الحمام ليس كالخروج منه ! » . كان علي من حيث المبدأ الخروج من تلك القصة خالية من الشبهات التي كنت أغذيها بكل وضوح حول نفسي . الخروج بدون قناع ، في عري محتشم ، بجسد خاص ، بدون لف أو دوران .

أمي ، المرأة التي اختارت الصمت والخضوع عن تقدير للعواقب أكثر من مسايرة القدر ، قالت لي ذات يوم ، وكانت قد تلقت كلمات قاسية للغاية من أبي جرحتها في الصميم : « يا بنتي ، صلي معي لكي يكتب الله لي أن أموت في حياتك وأن يمنحني شهرا أو شهرين من الحياة بعد موت أبيك ! أود أن أتمكن من التنفس لبضعة أيام ، لبضعة أسابيع في غيابه ، غيابا مطلقا . انها رغبتي الوحيدة ، ومرادي الوحيد ، لا أريد أن أرحل في حياته ، لأنني سأرحل عندئذ مجروحة بشكل مزدوج ، مخربة على نحو مرعب ، مهانة . لقد قررت الحياة في صمت الصوت ، مخنوقة بيدي ، لكن لأمنح زمنا ، ولو قصير ، لأصرخ في النهاية ، لأطلق صرخة ، صرخة واحدة ، صرخة تصعد من أعماق النفس ، من بعيد ، أبعد من ولادتك ، صرخة هنا ؛ لابدة في صدري ، تنتظر ، وسأعيش حتى لا أموت بهذه الصرخة التي تأكلني وتفتك بي . صلي من أجلي ، يا ابنتي ، يا من تخبرين الحياة بوجهيها ، وتعرفين القراءة في الكتب وفي صدور الأولياء .. » .

كنت قد نسيت حتى رنة صوتها · أمى ، امرأة أهملها والدى، بسبب قصتى ، كانت تقول لى : « يا ابنتى » · كأن شيئا لم يحدث طوال عشرين عاما · لايمكننى القول بأنى كنت أحبها · فعندما لم تكن تستثير شفقتى ـ هذا الشعور بالخجل المحزن أو الغضب الصامت تأكيدا ـ كانت لاتدخل فى الحسبان ، أى لا جدوى لها · لم أكن أراها وكنت أنسى أنها أمى ، وكان يحدث أن أخلط بينها وبين مليكة ، الخادمة العجوز ، أو شبح متسولة مجنونة كانت تجىء من حين الى آخر لتلتجىء الينا ، فى الدار عند مطاردة الأطفال لها رشقا بالحجارة أو سبا · كنت عندما أعود ليلا ، أعبر جسدا ملتفا فى غطاء خشن ، ولم أكن أحاول معرفة اذا كانت هى المجنونة أم أمى المطرودة من بيتها · وحتى اذا حدث وتأثرت لا أظهر ذلك · كنت أغمض عينى ، حتى لا أرى ، ولا أسمع ، فلا أضطر الى الكلام · وما كان يحدث بداخلى كان ينبغى أن يظل بداخلى ، بلا شفافية · ذلك أنه لم يكن هناك ما يقال أويمكن أن يقال ويكشف ويشهر به · فلم تكن لدى الرغبة ولا الشجاعة · وبدءا باللحظة التى فقدت فيها توازنى فوق الحبل، كنت أحس بحاجتى الى وقت طويل لأنسلخ من عشرين عاما من خيال الظل · ولكى اكتسب ولادة جديدة ، كان على انتظار موت الأب والأم ، لقد فكرت فى التسبب فيه والتعجيل به ، وكنت سأرجع هذا الاثم للمسخ الذى كنت فيه ·

لقد تردت أمى فى الجنون · فحملتها احدى عماتها لتقضى بقية أيامها فى حرم أحد الأولياء ، فى الجنوب · وأعتقد أنها لكثرة ما تصنعت نوبات العته التى كانت تمزق فيها أغراض زوجها ، انتهى بها الأمر الى التعود على ذلك مع عدم تبينها هى نفسها لما كانت تفعله ·

حضرتها من أعلى غرفتى · محلولة الشعر ، ممزقة الثوب ، تنتحب ، وتجرى مثل طفلة فى فناء الدار ، تقبل الأرض والجدران ، تضحك وتبكى وتتوجه الى باب الخروج على أربع مثـل حيوان غير مرغوب فيه ، كانت بناتها يبكين ، ولم يكن أبى موجودا ·

فى الليل كان يخيم على الدار ثقل كبير ، من جـراء الصمت والندم · كنا جميعا غرباء · وقد غادرت البنات الدار ولجأن فترة من الزمن الى بعض الخالات · هكذا وجدت نفسى وحيـدة مع أبى فى انكساره ·

ومن حين الى آخر ، كانت البنات يعدن للحصول على بعض أغراضـهن ثم يتصرفن دون رؤية المريض · مليكة العجـوز هى الوحيدة التى ظلت وفيـة للدار ، وكانت تستقبل فى الليـل المتسولة المجنونة أو الفحام الذى يروق له أن يثرثر معها ، فقد كانا منحدرين من القرية نفسها ·

قرر أبى صيام رمضان رغم الألم الذى كان يشعر به فى الصدر ، وعند المغرب ، لم يكن يأكل الا قليلا · كان برفضه تناول الطعام يستسلم للموت فى صمت مطبق · وكنت أذهب أثنـاء النهار الى المتجر ، وأقوم بترتيب الأمور · اخوته لم يأتـوا أبدا لرؤيته · فقد حسبوا حسابهم ، لأنهم كانوا مبعدين عن الارث بحكم وجودى ·

كل شىء كان على ما أعتقد مرتبا عشية ليلة السابع والعشرين من رمضان ·

وغدا كل شىء جليا بداخلى ، فلا يمكننى القول بأن ترتيباتى كانت قد أتخذت · لكنى كنت أعلم بأنى ، بعد موت الأب ، سأهجر كل شىء وأمضى الى جهة أخرى · أترك كل شىء للبنات ، وأغادر

تلك الدار وتلك العائلة الى الأبد . فباختفاء الأب ، كان على كل شيء أن ينتهي . فقد كان سيحمل معه الى قبره صورة المسخ الذى صنعه .

بعد الدفن ، فقدت جميع المعالم . وخلال بضعة أيام ، لم أكن أعرف أين أنا ولا مع من كنت . لقد حكيت لكم تلك المغامرة التى كانت تحتوى على كل مقومات الروعة ثم انتهت بالخوف والتيه .

عدت ذات ليلة الى الدار . دخلتها عبر سطح الجيران . كانت البنات قد عدن . وكن مرتديات أفخر الثياب ، ومتبرجات بافراط ، وقد تزين بحلى أمهن ، كن يضحكن ويلعبن مع نساء جئن من الحى . لقد كان الدفن والحداد بالنسبة لهن حفلا وتحريرا . وقد تفهمت رد فعلهن الى أبعد حد . انهن فتيات محبطات ، طال تهميشهن خارج الحيـاة ، وكن يكتشفن الحرية . وهكذا أطلقن ماكن يدخرنه من هستيريا . كانت كل الأنوار مضـاءة . وبعض الاسطوانات تدور فى حاك قديم . الحفل كان فى ذروته ، ولم يكن ينقصه سوى الرجال . ابتسمت ، فلم يعد أى شيء يعنينى ، كنت قد صرت غريبة . فتحت باب غرفتى سرا وأخذت بعض الأغراض كومتها فى كيس ، ثم عدت عبر السطح .

توجهت فى تلك الليلة المنيرة نحو المقبرة وأنا أرتدى جلبابا وأضع وشاحا على رأسى ، اذ كان شعرى طويلا ، وتخطيت سـورا قصيرا لكى لا يرانى الحارس ويممت شطر قبر أبى .

كانت الليلة هادئة وجميلة . ليلة العيد . وكانت السـماء مرصعة بالنجوم . كان التراب الذى يغطى القبر لايزال نديـا ، فشرعت يداى تحفران بسرعة ونظام . كان على عدم ازعاج الميت وتلافى اثارة انتباه الحارس أو أحد منتهكى الحرمات . فلما لاحت لى

قطعة من الكفن الأبيض ، أخذت أزيح التراب بأصابعى فى تمهل · كانت الجثة باردة جدا · كانت مشاعرى يمتزج فيهـــا الخوف بالخشية · توقفت لحظـة وركزت بصرى على رأس الميت عنـد المنخرين ، بدا لى أن الثوب الأبيض يتحـــرك · هل كان لايزال يتنفس ، أم أن ما رأيت محض هلوســة ؟ عجلت بافراغ الكيس الذى كان يحتوى على كل ما كنت أملكه تقريبا ، قميص رجالى ، سروال ، نسخة من شهادة الميلاد ، صورة حفل الختان ، بطاقة شخصية ، عقد الزواج من فاطمة البائسة ، أدوية أبى التى كنت أعطيها له بالقوة ، جوارب ، أحذية ، كومة مفاتيح ، حمالة ، حق نشوق ؛ حزمة رسائل ، كتاب حسابات ، خاتم ، منديل ، ساعة مكسورة ، لمبة ، شمعة محترقة حتى النصف ·

فى اللحظة التى كنت سأسد فيها القبر ، انحنيت لكى أكوم الأغراض جيدا ، فأحسست بألم فى صـــــدرى · كان هنــاك شىء يضغط على ضلوعى وقفصى الصدرى · كانت أربطة الثوب لا تزال حول صدرى لكى تمنع النهدين من البروز والكبر · فانتزعت بحنق ذلك التنكر الداخلى المكون من عدة أمتار من الثـــوب الأبيض · بسطته ومررته حول عنق الميت · ثم شددت بقوة وعقدت · كنت أتصبب عرقا · فقد كنت أتخلص من حياة بأكملها ، من عهد خداع ، من حقبة كذب · وكومت الأغراض بيدى ورجلى فوق الجثة التى كدت أدوسها عرضا · ثم أهلت التراب · كان حجم القبر قد تغير · كان ضخما · وقد وطدت الركام ببعض الحجارة الثقيلة واستغرقت فى التأمل لحظة ، لا للصلاة أو التماس رحمة الله لروح ذلك الرجل البائس ، ولكن لكى أشبع من الهواء الجديد الذى كنت أستنشقه · وقلت ما يشبه : « السلام عليكم ! » أو : « وداعا أيها المجد المختلق ، لنا الحياة والروح عارية ، بيضاء ، بكر ، والجسد جديد بالرغم من أن الكلام قديم ! » ·

(٦)

خنجر يداعب الظهر

فى تلك الليلة الظلماء الحالكة ، اختفيت . لم تكن خطواتى تترك أى أثر وهى تكبح العتمة ، غادرت المدينة وأنا أطوف حولها . اخترت السرعة فى عبور المكان حتى لا أزعج نوم الناس الطيبين الهادىء . فلم أكن واحدة منهم فحسب ولكنى كنت عنصرا جامحا ومشوشا .

كنت سعيدة فى تلك الليلة من ليالى سبتمبر ، كانت تهب على من الحدائق نفحات من الياسمين وشجر الورد البرى الزكى . كنت أستنشق تلك العطور بعمق وأسير غير حافلة بالطريق المفتوحة أمامى . فبعد أن صممت على المغامرة ، كنت فى سلام مع نفسى . ولم التفت لألقى نظرة أخيرة على شهادة الميلاد . كنت قد دفنت كل شىء : الأب والأغراض فى قبر واحد ، الأم فى مزار ولى فى باب الجحيم ، والأخوات فى دار ستنتهى بالسقوط ودفنهن الى الأبد . أما الأعمام والخالات فلم يكن لهم وجود بالنسبة لى مطلقا ، وبداية

بتلك الليلة لم أعد بالنسبة لهم موجودة ، فقد اختفيت ولن يعثروا علي أبدا ٠

كنت أسير بعيدا عن الطرق ٠ وعندما كان يهدني التعب كنت أنام ، مفضلة أن يكون ذلك تحت احدى الاشجار ٠ كنت أنام بالطبع دون خشية او قلق ٠ كان جســـدى يتجمع حول بعضه ويستسلم ببطء لخدر رقيق ٠ وقلما كان النوم بذلك العمق والهناء، كنت مندهشة جدا لتلك السهولة ، والسعادة والمتعة التى كانت للجســد وهو يثقل ويرتــاح أقول هذا لأنى كثيرا ما كنت القى مصاعب في النوم ٠ كان يحدث لى أن أقضي الجزء الأكبر من الليل وأنا أتفاوض معه من أجل قسط قليل من الراحة ٠ ولم أكن أعرف تلك الراحة الا عند طلوع الفجر ، كنت بلا مرفأ أرسو فيه ٠ ولم يعد ذهنى مزدحما بالكثير من الأسئلة والأشياء التى لابد من فعلها أو فسخها ، فلم أكن مجردة تماما ٠ كلا ، لم اكن كذلك بعد ٠ لكن بمجرد التخلي عن كل شيء ، وما أن رحلت وأنا مصممة على عدم العودة ، قاطعة مع الماضي وآثارة كل صلة ، كان ذهنى يتحرر من الخوف ٠ كنت عازمة على دفن الماضي في غيبوبة تامة ، وفضه فى فقدان كلي للذاكرة ٠ كنت أتطلع الى ولادة جديدة ، بدون حسرة وبدون ندم ، في شكل بكر ونظيف ٠

ان نومى فى الهواء الطلق لم يعد مأهولا بالأحلام الخارقة ولا بالكوابيس ٠ كان نــوما هادئا ، راكدا كسطح بحر هادىء ، أو ككتلة من الثلج ، مسطحة ومسترسلة ٠ فى البداية أرجعت ذلك الى الاعياء الجسماني ، ولكن بعد ذلك فهمت بأنه كان نوم اللحظات الأولى للحياة ٠

كان يحدث لى ، وخاصة أثناء النهار ، أن أجد نفسى مغمورة بفورة من الحرارة والغم ٠ لم يكن ذلك يستمر طويلا ٠ كان خلقى

ينقبض ، فكنت أتوقف ، ثم كان كل شيء يعود تدريجيا الى مكانه · لا شك أن الانتفاضات الأخيرة للماضي القريب ، كانت على مرمى البصر واليد · وذلك الضيق الذى يعترى الجسد ، كان مرجعه الى العزلة · فقد اخترت السير في طرق قليلا ما كان يسلكها أحد ، كنت آكل أى شيء ، وأشرب الكثير من الماء ، ففى كل مرة أمر بالقرب من أحد الأكواخ ، أو احدى الضيعات ، أطلب الماء · ولما كانوا يعتبروننى متسولة ، كانوا يقدمون لى خبزا وفواكه أيضا · وعندما كنت أخرج النقود لأدفع ، كان الناس يرفضون أخذها · كنت أقرأ فى نظراتهم نوعا من الشفقة القلقة · لم أكن أتمهل معهم ، كنت أنصرف قبل أن يشرعوا فى القاء الأسئلة · وكان بودى أن أتكلم ، لكننى لم أكن أعرف ماذا أقول · وعلى كل لم يكن فى امكان أحد أن يفهمنى · فما الجدوى اذن من الخوض فى حوار أو حديث عن الطقس ؟ ومع ذلك ، تبعنى فى ظهيرة أحد الأيام ، رجل عند نهاية احدى القرى · وقال لى بلهجة ساخرة :

ـ الى أين أنت ذاهبة يا أختى بمفردك ؟

ابتسمت وواصلت طريقى دون أن التفت ·

ـ هل تدركين يا أختى ، الى أين أنت تتوغلين ؟ الأخت تتوغل فى غابة كثيفة تنتظر فيها الخنازير البرية حلول الليل لتلتهم فريستها · والخنازير البرية لها مخالب مقدودة من البرونز ، وأنياب مسنونة من النحاس ومناخير تنفث النار ·

أحسست بما يشبه القشعريرة من أعلى رأسى الى أخمص قدمى · لم يكن يخفينى ذلك الرجل ذا الصوت العذب ، فقد سبق وسمعت عن اغتصابات فى الغابة · ولم تكن لدى الرغبة فى الفرار ، ولا حتى فى المقاومة اذا تحول الرجل الى خنزير برى ·

لم أكن لا مبالية ، ولكنى كنت فضولية . فذلك الرجـــل الذى لم أكن أعرف حتى وجهه ، كان بكلماته وحدها يوقظ فى أحاسيس جسدية .

كنت أسير وأنا أسرع الخطى . تفصلنا أمتار قليلة ، وأنا أسمعه يتمتم بكلمات تشبه الصلوات . لم يعد يتكلم عن وحش يمزق جسد فتاة شابة ، بل عن الله ورســوله ، وكان يردد هذا التعزيم :

— باسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على آخـــر النبيين ، سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، باسم الله ، الله أكبر . الحمد لله الذى جعل المتعة العارمة للرجل تكمن فى الداخل الدافىء للمرأة . الحمد لله الذى جعل فى طريقى هذا الجسد الذى يتقدم وفق ما أبتغى ، هذا دليـــل على نعمته ووجوده ، ورحمتــه . الحمد لله ، الحمد لك يا أختى ، أنت التى تسبقينى لكى أشم عطرك . لكى أحلم بعينيك وشعرك آه ، يا أختى ، واصلى السير حتى الدغـــل الذى ســـيكون ســـكنا لنا . لا تلتفتى . يا أختى، يا مجهــولتى التى أرسلها القـــدر لكى نشـــهد بعظمة الله على الرجل والمرأة اللذين سيقترنان عند حلول الليل . أحمد الله . وأنا عبده ، عبدك أنا ، فلا تقفى . ان الشمس تغيب تدريجيـــا ومعها يسقط كبريائى مهشما ، باسم الله الرحمن ...

توقفت . كنت كأننى مشدودة بقوة خفية . فلم يعد بمقدورى ان أتقدم . نظرت يمينا ويسارا ، فتبينت أنى وصلت الى الدغل ، كان الرجل لا يزال خلفى . أصخت السمع ، كان قد توقف عن الذكـــر ، ولم يعد يتفوه بكلمة واحدة . كنت أتصبب عرقا ،

وتسمرت فى مكانى . انتظرت لحظة ، وكان الرجـل ينتظر هو الآخر . لم يكن يأتى بأية حركة . نظرت الى السـمـاء ، كانت تصطبغ بألوان الشمس الغائبة . وفجأة أحسست بحرارة شديدة . ودون أن أنتبه نزعت جلبابى ، كنت أرتدى تحته سروالا واسعا . ثم حللت شعرى ، لم يكن طويلا جدا . وبقيت واقفة كتمثال خيم الليل فى دقائق ، فأحسست بالرجـل يقترب منى ، كان يرتجف وهو يتمتم ببعض الصلوات . أمسك بى ثم بكتفى ، وما لبث أن جثا على ركبتيه ، وبقيت واقفة . كان وجهه يتصبب عرقا أو دموعا ، وكان يهذى .

هكذا كان رجلى الأول عديم الوجه . لم أكن لأحتمل أن يطرح على أسئلة . ولو لم يختف فى الليل لكنت قررت .

فى ذلك اليوم لم أر أحدا فى الطريق . كان لدى احسـاس بأن الناس الذين على أن التقى بهم سيأتون جميعا من الخلف . كان ذلك وسواسا . وفى الليل دخلت المدينة التى سأعيش فيها قصة طويلة . كانت مدينة صغيرة . عند عبورى لعتبتها انقبض قلبى . وكان ذلك ينبىء بشىء غير سىء بالضرورة . شرعت فى البحث عن حمام لأغتسل وأنام فيه . كان الوقت متأخرا . رمتنى حارسـة الحمام التى كانت تتقاضى الثمن ، بنظرة رهيبة وقالت لى :

ـ أهذا هو الوقت الذى نأتى فيه ؟

لم أجب فواصلت :

ـ كنت أتهيأ للاغلاق ، لكن لاتزال هناك امرأتان أو ثلاث يتجرجرن بالداخل . أسرعى .

أسرعت . وتبعتنى بنظرتها . فى الحجرة الداخليـة التى

توجد بها مغسلة الماء الساخن ، كانت هنـاك امرأتان نحيفتان ، بشكل غريب ، كأنهما توأمان فى التعاسة • كانت كل واحـدة تشغل زاوية وتسكب على رأسها كاسات من الماء بحركة آلية • وقد علمتا موضعهما بدلاء من الماء • فهمت بأنه لم يكن ينبغى ازعاجهما • كانتا تنهضان من حين الى آخر ، وتسندان ظهريهما أحدهما على الآخر ، وتفركان اليدين ، ثم تعودان الى زاويتيهما • كنت أغتسل بسرعة • وكنت منحنيـة الرأس عنـــدما انتصبت احداهما أمامى وقالت لى بيقين :

ـ أغسلك بالصابون !

لم أرفع بصرى ، كانت ركبتـــاها الضخمتان فى مستوى منخرى ، فقلت :

ـ كلا ، شكرا !

ـ أقول لك أغسلك بالصابون •

كانت الأخـــرى قد انتقلت الى المدخل الذى حاصرته بصف من الدلاء •

كان ذلك الاقتراح ، غير محتشــــم بلا شك • وأمام التهديد أذعنت • وطلبت أن أملأ الماء • ملأت دلوا من الماء المحرق رقذفته على المرأتين وأنا أقفز • وحالفنى الحظ فلم أنزلق • وفى طرفة عين وجدتنى عارية أمام الحارسة التى أخذت تصرخ :

ـ أنت مجنونة ، ستبردين !

ـ كلا ! لقد أفلت بأعجوبة ! اثنتان ••

ـ ماذا تقولين ؟ لم يعد هناك أحد •• عنـــدما كنت داخلة كانت الثلاث الأخيرات يخرجن ، الم تريهن ؟ هل تسخرين منى ؟ ••

كنت أرتجف ، مقرورة من الخوف · سألتنى بعد تردد عن عددهن ·

ـ اثنتان ، نحيفتان جـدا ، خيطيتا الشـكل ، متشابهتان تماما · أرادتا غسلى بالصابون !

ـ كنت تحلمين بلا شك · انك من التعب بحيث رأيت العفريت وزوجته !

كان الخوف قد اعتراها هى الأخرى · رغم أن لهـا مظهرا شريرا ، فصارت لطيفة جدا مع بقائها متسلطة ·

ـ هل لك مكان تنامين فيه ؟

ـ كنت أفكر فى أن أطلب منك اذا كان من الممكن أن أقضى الليلة هنا ·

ـ هنا ، غير ممكن · المكان ليس مريحا ، ثم من الممكن أن يعود الجنيان للظهور فى الليل ويظفران بك · بشرة بهذا الجمال لاتنام فى أى مكان · ستأتى عندنا ، بيتنا متواضع ، وصالح ، فأنا أسكن مع أخى وهو يصغرنى سنا ·

(٧)

الحارسة

كان علينا ، لكى نصل الى الدار ، عبور أزقة تتداخل حسبما خططت الصدفة أو رغبة بناء فاشـــل · مررنا بالدرب المسمى « درب واحد » وهو ضيق بحيث لايسمح الا بمرور شخص واحد · ويحكى أن العشاق كانوا يتواعدون فيه · كل منهما يدخله من جانب ، وعندما يصلان الى منتصفه لايسمح أحدهما للآخر بالمرور ، فيجدان فى هذه اللعبة مناسبة للتلامس · كانت المرأة الملثمة ترتدى جلبابا وتضع يدا أسفل بطنها والأخرى على صدرها · وكان الرجل المواجـه للمرأة ، يتوقف لحظـــة الى أن يحس بنفس الحبيبة على وجهـه ، كان « درب واحـد » فى ذلك الوقت هو الموعد الخفى للقبلات والمداعبات المختلسة ، والمكان الذى تلتقى فيه الأجسام المحبة وتنصب العيون فى نظرة المجهول · وكانت نظرات أخرى ، خبيئة خلف أشكال الغيرة ، تلاحظ تلك اللقاءات ·

كانت المهملات تغطى الأرض · لكل دار ركامها من المهملات

أمام الباب ، تنبعث منها رائحة كريهة ، ولم يكن يبدو أن ذلك يزعج أحدا ، وكان هناك قط يئن ، مقلدا نواح طفل مهمل • كنت أسير خلف الحارسة البدينة • قالت لي :

ـ كان ينبغي تسميته بالأحرى درب نصف !

رفست في طريقها قطا سمينا • فلم يند عنه مواء بل عويل رجل جريح • توقفت أمام باب مغلق بمراتيج حديدية وأقفال ، ثم قالت :

ـ خلف هذا الباب ، تحرك الشؤم طويلا • فقد أنجب أطفالا من امرأة عاقر • وسبب الجفاف في البلاد ، ثم أمطار طوفانية • هنا كان مكتب الشؤم • وهنا كانت وكالة المدينة القديمة • وهنا كان يقطن رجل سوي ، ولكنه كان يجامع ذريته ، وذات يوم انهارت الدار عليهم ، فلم يتم انتشالهم • أغلقت عليهن الأبواب والنوافذ وأهيل الرمل والأسمنت على الجميع • هم جميعا هنا ، الأم ، والأب والأبناء ، مقترنين الى الأبد بالأرض ونار جهنم ، ومنذ ذلك الوقت ، توقف الشؤم • لايزال يظهر ، لكن دون كوارث •

كنت أتساءل لماذا تحكي لي تلك القصص المخيفة • وكان فضولي منصبا على ما يمكن أن يحدث لي وليس على ما حدث خلف جدران تلك الأزقة • لكنها كانت تقدم لي في الواقع الجيران •

هنا تعيش عائلة بلا مشـــاكل • دباغ • لايجـرؤ أحد على مصافحة يده ، فيالها من رائحة تلك التي تنبعث منها •• هنا كان يعيش حصان بمفرده •• هنا لا يعيش أحد ، لا أعرف لماذا •• فالدار المهجورة مثل قصة مبتورة •• هنا محل اللبان ، وقد صار الآن كتابا لتحفيظ القرآن ـ هنا يدرس القنصــــل ، وهو قريب جدا من الدار •

الدار كانت مكونة من طابقين • لم تكن كبيرة ، لكنها كانت تشرف على الدور الأخرى • فى الصيف ، كان الناس يعيشون فوق السطوح • أنزلتنى الحارسة فى غرفة مؤثثة ، ومزينة • طلبت منى الانتظار وعدم الحركة • أخذت أنظر الى الجدران • كانت الرطوبة ترسم عليها أشكالا بشرية بارزة ومتغضنة • ولكثرة التحديق فيها أخذت تتحرك • فى وسط الجدار ، علقت صورة شيخ معمم ، تبدو عليه سيماء المرض • الصـورة أبيض وأسـود منمقة بالألوان • نال التقـادم من كل ما فيهـا ، الورق الأحمـر الذى لونت به الشفتان ، زرقة العمامة ، لون البشرة • فعل الزمن فعله وأعاد لذلك الوجه العياء الذى كان يسكنه لحظة التقاط الصورة • هى صورة الأب أو الجد ولا شك • فى نظرته أسى لا حدود له • ينظر الى العالم كما لو كان ذلك للمرة الأخيرة • ولابد أنه قد ألمت به فى حيـاته الطويلة كارثة ما •

انتشلتنى الحارسة من تلك الخواطر وهى تقول :

ـ والدنا • لم يكن سعيدا • ولا نحن كذلك • التقطت هذه الصورة قبيل موته بقليل • هيه • سيراك القنصل غدا ••

بعد تردد وابتسامة مقتضبة صححت قائلة :

ـ أو بالأحرى ، سترينه غـدا • ستتناول الآن قليلا من الطعـام • لا أدرى لماذا ، ولكنك توحين لى بالثقـة • فأنا طابعى الارتياب • لكن ما أن رأيتك حتى فكرت فى امكانية تفاهمنا • نسيت أن أسألك اذا كنت ترغبين فى العمل ، أى هل تقبلين •

ـ أنا مستعدة • ما يمكن أن يحدث لى سيكون دائما طيبا • بما يتعلق الأمر ؟

– أن تعتنى بالقنصل ٠

– هل هو مريض ؟

كلا ، ليس تماما ٠ انه أعمى ٠ فقد البصر وهو فى الرابعة ، بعد أن المت به حمى كادت تودى بحياته ٠

– موافقة ٠

– سيتضح لك بالتدريج ما يتعين عليك القيام به ٠ أنا لا أعرف عنك شيئا وهذا أفضل ٠ واذا خنتنا لسوء الحظ ، ستجدينى فى طريقك ٠ ففى دارى سرعان ما تتصرف الظنون ٠ لقد ضحيت بكل شىء من أجل أخى ٠٠ وأنا حريصة على أن يظل السلام مخيما على هذه الدار ٠

بينما كانت تلقى بحديثها ، كنت أنظر الى جهة أخرى ، أفكر فى أبى الذى تذكرته واقفا بمدخل الدار يوبخ أمى ٠ فاللهجة الجافة للحارسة هى التى ذكرتنى بأبى ٠

يوجد أناس يصرخـون وهم يتوعدون ٠ يشـوش الغضب مشاعرهم ٠ وآخرون يتكلمون دون أن يرفعوا أصواتهم وما يقولونه يكون أكثر تأثيرا ٠ وهكذا لم تكن من النوع الذى لا يدع مجالا للظنون فحسب بل قادرة أيضا على تنفيذ أقوالها ٠

سمراء ، قوية ، ذات عجيزة عجيبة ، ومن هنا اســمها ، الحارسة ، لا عمر لها ٠ بشرة وجهها ملساء ، كامدة ، ولم تكن بدانتها عائقا بل مؤهلا للمهنة التى كانت تمارسها ٠ وهى تشغل فى الحمام مركزا هاما تغبطها عليه المخابرات العامة ٠ فهى تعلم كل شىء ، وتعرف كل عائلات الحى ، وتتدخل أحيانا فى دسائس هذا الجانب وذاك ، وتسهل بعض الزيجات ، وترتب بعض اللقاءات

.. انها سجل الحى وذاكرته ، امرأة السر والمسرة والخشـــية والرجاء . تراقب المداخل وتحرس الأمانات ، وتحافظ بنداءاتها على النار فى الفرن الملاصق للحمام . ولأن الحارسة نادرا ما تكون متزوجة ، فهى اما أرملة أو مطلقة ، لا تكون لها حياة عائلية حقيقية انها تعيش على هامش المجتمع ولا أحد يكترث لمعرفة الكيفية التى تقضى بها لياليها ولا مع أى شيخ لذلك تنســـب اليها حيـــاة خيالية ..

لقد مضى زمن كانت فيه الحارسة ، هذه المرأة التى تصـعد الدرج حاليا بمشقة ، شابة ومعشوقة وربما متزوجة أيضا ـ كان لها مهر ودار وحلى . كانت هيفاء ولا شك ، وربما كانت جميلة أيضا . كنت أنظر اليها وأحاول أن أستخلص من ذلك الجســد الشحيم والمتعب صورة الشابة التى كانت عليها . ثم انقلب كل شىء فى ثوان ، وهلك الجميع فى الزلزال . وجدت نفسها تحت الأنقاض ، مع شقيقها الصـغير المرضـوض ، المغمض العينين الى الأبد .

حكت لى هذه القصة ذات ليلة ، استعصى علينا فيها النوم. كان غطيط القنصل يتصاعد . وكنا ننتظر النهار لكى نذهب لشراء الفطائر والنعناع لاعداد الشاى . لم تقل لى كلمة واحدة عن حياتها السابقة على الكارثة . فكان يروق لى أن أتخيلها سعيدة فى دار ، فى أسرة ، مع رجل . ربما لم تكن موجودة فى تلك الليلة بأكادير ، بل فى مكان آخر ، مع زوج يضربها ويذهب الى النساء ، وقد يكون مضى مع بنت أخت له أو بنت عم ، بعيدا ، خارج البلدة ، دون أن يظهر له أثر على الاطلاق .

لم أتفوه بكلمة واحدة . كنت ألتقط فى نظرتها أحيانا آثار بعض المذلة :

ـ نعم ، كنت زوجة مهجورة ! ألقى بى فى الطريق ، وكما يقول المثل « لا يفر قط من دار العرس » ٠٠ فاذا كان قد مضى فلأن لديه أسبابه ٠ هل تعرفين كيف يتم الاحتفاظ برجل ؟ ٠ ماذا سأفعل بمطلقة لا تزال متزوجة ، وأرملة بدون متـــوفى أو ميراث ، وزوجة بدون بيت ؟ هذا عبء ، جبل رازح فوق صدرى ٠ بماذا أجيب الأقارب والجيران ؟ بأن ابنتى لم تمتع زوجها بما فيه الكفاية ، هو الذى ذهب يلتمس فى مكان آخر ما لم يجـده فى فراشه الشرعى ؟ كلا ، هذا فوق طاقتى ٠٠

ويبدو أنها رحلت ، لكى لا تسمع مرة أخرى هذه المؤاخذات لكى لا تظل تلك المهجورة المعرضة للسب والازدراء ٠ ويبدو أن شقيقها الصغير قد لحق بها تعلق بجلبابها باكيا متوسلا ٠ ولابد أن تشردهما كان قاسيا ٠ الجوع والبرد والمرض ٠ وقد يكون الصبى فقد البصر بسبب اصابته بالرمد الحبيبى ٠ لقـــد كانت تنظف غسيل العائلات الكبيرة ، وتطبخ فى حفلات العرس والتسمية ٠ كانت تربى شقيقها كما لو كان ابنها ٠ ترغب له فى حياة أفضل ، فبذلت قصارى جهدها لكى تحصل له على منحة من الجهـــات الخيرية ، حتى صار معلما ، يعلم القرآن لأطفال الحى ٠

كانت تريده وزيرا أو سفيرا ٠ لكنه لم يكن سوى قنصــــل فى مدينة خيالية ببلد وهمى ٠ هى التى عينته فى هذا المنصب ، كما سيقول لى هو ذلك فيما بعد وبأنه قيل « حتى لا تحزن » ٠ كان يلعب اللعبة ٠ وكانت هى مسرورة وهو لم يعاكسها أبدا ٠ كانا متفقين على ذلك فيما بينهما داخل علاقة مرسومة باتفاقات ضمنية تظهر فى طقس يومى كان يجعل من ذلك الأخ وتلك الأخت زوجا غريبا ، ملتبسا بالتأكيد ، ولكنـه يزرع التشويش فى لعبـــة مسرحية ٠

فى الفترة الأولى ، كنت أعتقد أنهما يلهوان أو يرميـــان الى

تسليتي . فتارة كانا عاتيين ، وتارة أخرى كانا يرخيان العنان لمظاهر مناجاة رومانتيكية . كان كلاهما مزخرفا ، حتى وهمـــا يصرخان . أهم طقس كان يتم في الصباح فلإيقاظ القنصـــل ، كانت تأخذ في الغناء بلطف ، ثم تقترب من البـــاب وهي تغمغم بأبيات من الشعر :

يا غزالي ووفائي
يا حناني وفؤادي
يا جميلي وأميري
ضوء عيني أنت
فهلا
بسطت ذراعيك ..

كانت تستغرق الوقت اللازم وتوقظه دائما بلطف . وغالبا ما كانت تحمل اليه بعض الزهور ، فكان أول سؤال يطرحه يتعلق بلونها وليس بشذاها . كان يلمس واحدة منها ثم يقول : « هذا الأحمر قاني جدا » أو « هذا الأصفر ممتع عند اللمس » .

كانت تقبل يده . ثم تصحبه الى الحمام لتحلق ذقنه وتغرقه بالعطر وتلبسه ثيابه . ثم كانا يخرجان ، واضعة يدها على يده ، ويتقدمان ببطء وهما يلقيان التحية على جمهور خيالي .

في البداية كنت أضحك . وبعد ذلك تعلمت أن ألعب اللعبة وأن اكون هذا الجمهور الغفير الخارج عن بكرة أبيه لتحية الزوج الأميري .

كنت جالسة على مقعد حول المائدة المنخفضـــة حيث كان الفطور معدا ، عندما سمعته يقول في الرواق :

– أحس بوجود زهرة فى الدار ، وهى بحاجة الى الماء .. لماذا لم تخبرينى بذلك ؟

عندما دخلا ، نهضت لأسلم على القنصل . مد لى يده لأقبلها فشددت عليها وعدت للجلوس .

– زهرة ، ربما ، ولكنها متمردة بالتأكيد !

ابتسمت وما لبثت الحارسة أن أشارت الى بالنهوض ولسان حالها يقـــول : « ليس من اللائق أن نأكل على نفس المائدة مـع القنصل » .

تناولنا ، أنا وهى ، فطورنا فى المطبخ ، فى صمت .

– هذه الدار ، هى كل ما نملك ، وعلى أن أديرها وأحفظها من النظرات السفيهة والحسودة . انى أهتم بكل شيء . وعلى أن أتحسب لكل شيء وأتصرف بحيث لا ينقص القنصل شيء . اننا نكسـب ما يكفينا للعيش . أحيانا يحتجزنى الحمام فأفكر فى القنصل . انه يشعر بالملل . فيفتح المذياع . وهى علامة سوء . فعندما يفتح هذا الجهاز معناه أنه ثائر الاعصاب . ربمـــا أنه لا يمكننى أن أكون رجلا فى الحمام ، وامرأة فى الدار ، ويحدث لى أحيانا أن أكون الاثنين معا فى كلا المكانين ، فاننى أعتمد عليك لمساعدتى ينبغى أن تكون الأمور واضحة . فالقنصل فى حاجة الى وجـود من يطمئنه حين لا أكون هنا . وفى الليل يحب أن يقرأ كثيرا له . وأنا لا أعرف القراءة . ولهذا اختلق له قصصا ، فلما لا تروق له ، يثور ويعتقد بأننى أعامله كطفل . لقد استنفذت مخزونى مـن القصص التى كنت أعرفها ، فصار فى الفترة الأخيرة متبرما فظا ، يقترب من الشراسة . انى أتألم وفى حاجة الى المساعدة . البرنامج هو نفسه تقريبا طوال أيام الاسبوع . فهو يقضى الصباح مـع القرآن الكريم ، وينام بعد الظهر ، وفى الليل يكون حرا ، ستعتنين به فى الليل .

(٨)

القنصل

في الاسبوع الأول ، تملكني استرخاء غريب ٠٠ ومن ناحية أخرى كنت أنام دون أن أحلم ٠ أتوجس وأظل ساعات طويلة اتسكع في الدار ، وحيدة مع تلك الاشياء البالية ، تلك الزرابي المهترئة ، وصـــورة الأب فوق الصوان ٠ أرنو اليه طويلا حتى يتشوش بصرى ٠ كنت أحب تلك الحالة من الكسل والعزلة حيث لم يكن بيني وبين أي أحد حساب ٠ وفي الليل عندما كان القنصل يعود ، أكون في تمام اليقظة ٠ في النهـــار كان الزمن يتســـع ويمنحني أرجوحة أتمدد فيها وأواصل أحلام يقظتي ٠ كنت أحدق بعيني المفتوحتين في السقف وفي التعرجات التي رسمتها الرطوبة كان الماضي يكتسحني ، صورة تلو الأخرى ٠ ولم يكن في مقدوري مقاومة كل تلك الذكريات المضطربة ٠ كانت كلها مصطبغة بنفس اللون ، لون الحبر الأسود ٠ وكانت ترافقها أصوات وصرخات وتنهدات في موكب كنت أراني فيه طفلة ولكن ليس على الشاكلة التي صنعني بها هؤلاء وأولئك ٠

كانت لنا حجرة فى أقصى الدار الكبيرة ، نوع من المخزن حيث كنا نحفظ مؤن القمح ، والزيت والزيتون لفترة الشتاء ، حجرة لا نافذة لها ، معتمة وباردة ، تسيطر عليها الفئران ويسودها الخوف . كان أبى قد احتجزنى بها ذات مرة . لم أعد أذكر السبب . كنت ارتجف من الغيظ والبرد . فصورة تلك الحجرة هى التى فرضت نفسها على فى المقام الأول . ولكى أتخلص منها ، استدعيت ، من داخل أرجوحتى ، أبى وأمى وأخواتى السبع ، وأشرت لهم بدخول الحجرة ، وأوصدت الباب مرتين ، ورششته بالنفط وأضرمت فيه النار . وقد اضطررت الى استئناف هذه العملية مرات عديدة من جراء الرطوبة والبرد اللذين كانا يطفئان ألسنة اللهب . كانت النار تدور حول أفراد الأسرة دون أن تطولهم كانوا متحدين فى المحنة ينتظرون نهاية اللعبة دون حراك .

وبحركة واحدة من يدى أذبت تلك الصورة وحاولت أن أتعلق بشىء آخر . لقد كانت كل أحلام يقظتى مخيفة .

درب مقفر وضيق . على الجدار الحجرى نمت ما تشبه رمانات يابسة . وعلى مواضع ملساء ، مطلية بالجير ، توجد كلمات وأقوال ورسوم وخربشات . ان الآباء ، عندما يكونون مصحوبين بأبنائهم ، يتلافون المرور من هنا . فى ذلك الدرب الذى بسعة القبر ، كنت التقى بأبى ، وجها لوجه ، لم أكن أرفع بصرى الى السماء ، بل كنت أتهجى الكلمات والرسوم على الجدار . لم أكن أتكلم معه . كنت أقرأ بصوت مرتفع ما كان مكتوبا على الجدار : « الحب ثعبان ينزلق بين القدمين » ... ورسم كتبت حوله أسماء لا تحصى : الباب ، البركة ، الشق ، الرحمة ، الشحاذ ، المنزل ، العاصفة ، الينبوع ، القرن ، الصعب ، الخيمة ، الساخن القبة ، الجنون اللذيذ ، البهجة ، الوادى » .. كنت أتهجاها

واحدا تلو الآخر وأصيح بها فى أذن أبى الذي كان وجهه المبيض فارغا من كل تعبير ، وقد أخذت أهزه كما لو كنت أوقظه ، ولكنه كان باردا ، ميتا منذ أمد طويل ٠

ذلك الدرب الضيق ، هو درب الخزى الذى يفضى الى الهاوية ٠ كنت فضولية وكنت أود الذهاب الى النهاية ٠ لقد هجر السكان ذلك الدرب لأن احدى الاشاعات تقول بأنه يقود الى الجحيم ، ويؤدى الى ساحة تعرض بها رؤوس الموتى مثل بطيخ أحمر ، فلم يعد يمر أحد من هناك ٠ درب ملعون ، كان يلجأ اليه من حين الى آخر ميت هارب من الجحيم ٠

كنت أعلم أن أبى ، رغم صلواته وصدقاته ، سيقيم زمنا فى الجحيم ٠ والآن أنا على يقين من ذلك ٠ هو هناك دون شك يدفع ثمن معاصيه ، ومن المرجح أنى سألحق به ذات يوم باعتبارى المصدر الرئيسى لآثامه ٠ لكنى سأعيش قبل ذلك ، هذا مكتوب ٠٠ أشار لى بيده أن أعود للجلوس ٠ ظللت مسمرة فى مكانى ٠ كان يعد شايا بالنعناع ٠ يداه تعرفان موضع كل شىء ٠ لم تكونا تترددان، لم تكونا تبحثان ، بل كانتا تتجهان مباشرة صوب الشىء ، وعندما أعد البراد ، قال لى :

ــ من فضلك ، هل بامكانك تسخين الماء ؟ لم يكن يقـــرب النار أبدا ٠ وعندما غلى الماء نهض وصـــبه فى البراد ٠ ثم أغلق الغاز وترك الشاى يتروق ٠ وعند جلوسه قال لى :

ــ لن يكون هذا الشاى طيبا جدا ٠ أعتذر عن هذا ، فالنعناع ليس طريا ٠ وقد نسينا شراء نعناع آخر ٠٠ يمكنك أن تصبى الآن ٠

شربنا الشاى فى صمت ٠ كان السرور باديا على القنصـــل الذى قال لى :

– ليس هذا هو وقت الشاى ، لكنى أحسست برغبة شديدة فى الشاى ، هكذا ، لهذا أتيت · أرجو الا يكون فى هذا ما يزعجك كان بامكانى استقدام كأس من الشاى من عند قهوجى الدرب ، لكنى رغبت فى أن أتناوله هنا ·

لم أعرف بماذا أجيب · وبعد لحظة قال لى :

– لماذا تحمرين ؟

وضـــــعت يدى على وجنتى ، كانتا ساخنتين ، كنت أحمر ولا شك · كنت مندهشة لأناقة حركاته ولطفها · ولم أكن أجرؤ على النظر اليه ، فقد كان مزودا ولا شك بحاسة اضافية تخبره مباشرة· فكنت أبتعد قليلا وأراقبه · لم أعد أعـــرف ان كان وسيما ، ولكن كان لديه ، كما يقال ، حضور ، بل اكثر من ذلك ·· كان ·· كان يرهبنى ·

بعد الشاى ، نهض :

– لابد أن أذهب ، فالأطفال مزعجون · أحـــاول تعليمهم القرآن ، مثلما كنت سأفعل بشعر رائع ، لكنهم يطرحون أسئلة مربكة من قبيل : « هل حقا سيدخل جميع المسيحيين النار ؟ » أو « بما أن الاسلام هو أفضل الديانات فلماذا انتظر الله طويلا لكى ينشره ؟ » ·· وكجواب أردد السؤال رافعا عينى الى السقف : « لماذا وصل الاسلام متأخرا جدا ؟ » · ·قد تكونين أنت ملمـــة بالجواب ؟

– سبق أن فكرت فى هذا · لكن كما ترى ، أنا مثلك ، أحب القرآن كشعر رائع ، وأمقت الذين يستغلونه فى تشويشات ويحدون من حرية الفكر · انهم منافقون · زد على ذلك أن القرآن يتحدث عنهم ·

– نعم ، أعرف ·· أعرف ··

بعد لحظة صمت تلا الآية الثانية من سورة « المنافقون » :

« اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله انهم ساء ما كانوا يعملون » ·· مؤمنون متعصبون أو منافقون ، لا يهم ، فهم يتشابهون وليست لى أية رغبة فى معاشرتهم ·

ــ أنا أعرفهم جيدا · تعاملت معهم من قبل ، أنهم يستندون الى الدين للسحق والسيطرة · وأنا استند الآن الى الحق فى حرية التفكير ، وحرية الاعتقاد أو عدمه · هذا لا يعنى سوى ضميرى · لقد سبق وتفاوضت بشأن حريتى مع الليل وأشباحه ·

ــ يروق لى عندما تبتسمين ·

كنت قد شرعت بالفعل فى ابتسامة قصيرة وأنا أتحدث عن الليل · طلب منى أن أعطيه منديلا نظيفا · وخلع نظارته السوداء ومسحها بالمنديل بعناية · وعند انصرافه ، توقف لحظة أمام المرآة ، وسوى جلبابه ومشط شعره ·

رتبت الدار وانفردت داخل الحمام · لم يكن به مغسل ولا مغطس ، بل طشتان موضوعان تحت صنابير الماء البارد · نظرت الى نفسى فى مرآة صغيرة · كنت قد هزلت · وكان مهما ألا أرهق نفسى أبدا بعد ذلك بعشرين عاما من الحياة المزورة ، وألا أعود للنظر الى الوراء ، وأن أطيح بحشد من الذكريات التى كانت تلاحقنى وتتنافس فى المخجل والممقوت وما لا يطاق · كنت أعلم بأننى سأتعرض خلال فترة زمنية لمأساة تلك الحزمة من الحبال المعقدة · ولكى أدفعها عنى ، كان لا بد من أن أغيب ، ألا أكون موجودة عندما تدق باب نومى ، لذلك قررت أن أشغل نفسى تماما بالدار وبالقنصل ، أن أصير امرأة ، وأنمى حساسيتى وأعيد الى جسدى النعومة التى كان محروما منها ·

كانت تضىء غرفة القنصل نافذتان · نظيفة ، مرتبة ، منظمة

ومزينة بذوق رفيع • خليط من ألوان الثياب ، وزربية بربرية تضفي على المكان بهجة ودفئا • على مقربة من السرير مكتبة صغيرة للكتب المرقونة على طريقة بريل • وعلى منضدة السرير ساعة منبه وصورة للقنصل وأخته ، ودورق مـاء وكأس • فى أقصى الغرفة ، طاولة عليها آلة كاتبة تخرج منها صفحة مرقونة الى النصف • تمالكت نفسى لكى لا أقرأ ولو السطر الأول • كان الفضول مستبدا بى • ابتعدت ثم حاولت قراءة بضع كلمات • استنتجت من تركيب الصفحات أن الأمر يتعلق بمذكرات شخصية • فوق الطاولة ملف أحمر يحتوى على علبة أوراق • أحسست بوجنتى تحمران • كنت خجلة • عاتبت نفسى لاكتشافى ذلك السر • فمن المرجح أن القنصل كان يسجل مذكرات دون معرفة أخته •

فى الليل وقع أول حادث منذ وصولى الى الدار • دخلت الحارسة محملة بمئونة العشاء وتوجهت رأسا الى المطبخ • لمحت البراد الذى كان مليئا بالنعناع والكأسين اللتين نسيت غسلهما • فوضعت سلتها ثم سألتنى ان كان قد جاء أحد بالنهار • قلت لها بأنه لم يأت أحد •

ـ لكن من شرب الشاى ؟

ـ القنصل وأنا •

ـ القنصل لا يشرب الشاى فى الدار خلال النهار أبدا •

ـ لقد شرب ! جاء فى الصباح ، وأعده بنفسه • يمكنك أن تسأليه فيحكى لك كيف حدث ذلك •

ـ كلا ، انه يعمل بغرفته • ولا ينبغى ازعاجه • هل كان الشاى طيبا ؟

ـ نعم ، قليل السكر ، كما أحبه ••

من غرفته علق القنصل قائلا :

– كان الشاى طيبا وكان الوقت الذى أمضيته مع مدعوتنا أفضل منه !

لزمت الحارســـة الصـمت • كانت معتلة المزاج : أردت مساعدتها • رفضت وطلبت منى أن أذهب لأغسل قدمى القنصل•

– هذا هو الوقت • سخنى الماء وحضرى الفوطة والعطر •

لم يكن قد سبق لى أن غسلت قدمى رجل • كان القنصل الجالس على أريكته ، يمد قدمـه اليمنى كى تدلك بينمـا كانت اليسرى غاطسة فى الماء الســاخن • كنت أدلكهـــا بشكل سيىء • وبدون غضب ، أمسك بيدى ودلكها برفق •

– لا يجب الحك أو الضـغط • التدليك منزلة بينهما ، انه مداعبة تعبر الجلد وتسرى الى الداخل مصحوبة بارتعاشات صغيرة ممتعة للغاية •

بعد ذلك الدرس ، جثوت على ركبتى وحاولت العثـــور على الحركة الصحيحة • لم تكن قدماه كبيرتين • كان ينتعل ولا شك حذاء مقاس تسعة وثلاثين • أخذت أدلكهما ببطء • فبدا بوضوح أنه مسرور • كان يبتسم ويردد بشىء من المتعة :

« الله ! الله ! » •

تم العشـــاء على ما يرام رغم حادث بداية السهرة • كانت الأخت مجهدة ، فنهضت وقالت لى :

– اقرئى له •

– كلا ، ليس الليلة •

قال القنصل : هذه الليلة سأتابع مع مدعوتنا مناقشة هذا الصباح ·

ورجاني أن أتبعه الى السطح ·

– فيه تبدو الليالى معتدلة ورائعة · خاصة فى هذا الموسم الذى ينقضى فيه الصيف بدون استعجال · ويروق لى كثيرا عندما تكون السماء بكاملها مرصعة بالنجوم · خلال يومين سيكتمل القمر ، سترين كم هو جميل ·

على الأرض وضعت زربية ومخدتان · وكانت المدينة لا تزال ساهرة بعد · فوق السطوح أناس آخرون يتعشون أو يلعبون الورق · كنت أنظر اليهم عندما طلب منى أن ألقى نظرة أكثر انتباها الى السطح الثالث على يميننا ·

– هل يوجدان به ؟

– من ؟

– رجل وامرأة ، شابان ، غير متزوجين ، وغالبا ما يتلاقيان فى السطح · يقبل كل منهما الآخر ، ينضامان ويهمسان بكلمات رقيقة فى الأذن · عندما أحس بالوحدة آتى الى هنا وأعلم أنهما برفقتى · انهما لا يريانى وأنا لا أراهما · أحس بهما وأحبهما كثيرا · فهما يختلسان ساعات من السعادة · وأنا سعيد كشاهد كتوم على هذه السعادة · تعرفين ، يحدث لى أحيانا أن أعيش بالتوكيل · هذا ليس أمرا خطيرا ، لكنه لا ينبغى أن يتكرر أكثر من اللازم · مجمل القول ، لا يجب على أن أزعجك بقصصى الصغيرة فيم كان حديثنا هذا الصباح ؟

– فى الاسلام ·

ـ الاسلام ! قد نكون غير جديرين بنبل هذا الدين ٠

ـ ألا يقوم كل دين على الشعور بالمعصية ؟ وأنا قد زهدت ٠ انى زاهدة بالمعنى الذى أعطاه الحلاج لها فى صوفيته ٠

ـ لا أفهم جيدا ٠

ـ أنا فى قطيعة مع العالم ، أو على الأقل مع ماضى الشخصى ٠ لقد اقتلعت كل شىء ٠ أنا مقتلعة من قناعة ، وأحاول أن أكون سعيدة ، أى أن أعيش حسب امكانياتى ، بجسدى الخاص ٠ لقد اقتلعت الجذور والأقنعة ٠ أنا تيه لا يمسكه دين أسير لا مبالية وأعبد الأساطير ٠

ـ هذه هى الحرية ٠

ـ نعم ، التجرد من كل شىء ، وعدم امتلاك أى شىء كى لا يملكنى شىء ٠ حرة ، أى مستعدة ، سابقة على العقبات ، وربما سابقة على الزمن ٠

ـ انك تذكرينى بهذه العبارة من الزمن : « فى الأصل ليس للانسان شىء » ٠

ـ ليس للانسان شىء فى الأصل ، هذا صحيح ، وينبغى ألا يكون له شىء فى النهاية ، غير أنه قد ثبتت فى ذهن الانسان الحاجة الى الامتلاك : امتلاك دار ، وأهل ، وأطفال ، وأحجار ، وسندات ملكية ، ومال ، وذهب ، وأناس ٠٠ وأنا بصدد تعلم ألا أمتلك شيئا ٠

ـ هذا التعطش للامتلاك والاستهلاك ينم عندنا عن نقص هائل ٠ شىء ما أساسى ينقصنا ، ولا نعرفه ٠ عرفت سدا كبيرا

كان يعيش دون أن يملك شيئا ، لا دار ولا متاع ولا روابط ، مات مثلما ولد : معدما . كان شاعرا ، رجل الكلام الموهوب ..

ـ الامتلاك ، الاكتناز ، الادخار كما يقال ، أليس فى هذا مجازفة متنامية كل يوم بكرامتنا ، أليس فى هذا اختبار لها ؟

ونحن نتبادل تلك الأفكار ، كان القنصل يقطع ، بطريقة منظمة ، أوراق الكيف اليابسة على لوحة أعدت خصيصا لهذا الغرض . فى البداية لم أنتبه . كانت يداه تعملان دون تردد ، وبأناة وخبرة . حشا سبسيأ ، وأشعله ، وجذب منه نفسا طويلا ثم قذف الجمرة الصغيرة وقال ، كما لو كان يتوجه لنفسه : « حسن » وحشا سبسيا مده لى :

ـ لا أعرف ، ان كنت تحبين هذا ! أعتقد أنه من النوع الجيد . من حين الى آخر أدخن سبسيا أو اثنين ، وهذا يساعدنى على اعادة الأمور الى نصابها ، يساعدنى على النظر بداخلى بجلاء ، دون لعب بالكلمات طبعا !

سبق لى أن دخنت الكيف فى حياتى السابقة . ولم أكن احتفظ بذكرى طيبة عنه . لكن فى تلك الليلة ، كل شىء كان طيبا ، حتى الكيف . كنت أحس بالثقة . وكنت أغادر الجحيم بصعوبة .

لم يكن ذلك الرجل الذى تعلمت غسل قدميه كل ليلة سيدى ، ولم أكن أعرفه ، ولكنه صار قريبا منى . كنت أنسى عماه وأتوجه اليه كما لو كان صديقا منذ وقت طويل . وهو نفسه نبهنى الى هذا ذات ليلة فوق السطح :

ـ حتى نتفاهم بهذا القدر ، لابد أن يكون الجرح نفسه خبيئا بداخلنا ، لن أقول العاهة نفسها ، فالعميان عدوانيون وأشرار فيما بينهم ، بل هو شىء محطم يقربنا .

بعد أن قررت دفن ماضى الشخصى نهائيا ، لم أرد على تلك الملاحظة · لقـــد قدرت أن القنصل لم يسـع فى أية لحظة لمعرفة عناصر حياتى السابقة · كيف كان بوسعى أن أقول له بأن حياتى تبدأ ، وأن ستارا سميكا قد أسدل على مشهد كانت الكائنـات والأشياء مكسوة بنفس الغبار ، غبار النسيان المطلق ؟ كنت أكافح فى صمت ، دون أن أدع شيئا يظهر ، كى أخرج نهائيا من تلك المتاهة الضارة بالصحة · كنت أصارع الشعور بالذنب ، والدين والأخلاق والأشياء التى كانت تهدد بالظهور ثانية ، كما لو أنهـا تريد توريطى ، تلطيخى ، خيانتى ، وتدمير البقية الباقية التى كنت أحاول الحفاظ عليها من كيانى ·

كان اللقاء بالقنصل فائدة هامة ، مبطنة ببعض المصـاعب الطارئة فى الحياة اليومية · وقد كان لهذا الرجل عالمه حيث كان يتحرك حسب ايقاعه الخاص · كانت له عاداته وبعض الطباع ، وطقس كان يمكن أن يبدو مضحكا أو جنونيا · كل ذلك كانت تتعهده أخته التى كانت تمارس من خلاله سلطتها · وأنا لم أكن أعرف أين أضع نفسى · فلأننى استخدمت بمحض الصدفة ، لم أكن أعرف بعد ما هو عملى على وجه التحديد · قالت لى الحارسة ما يتعين على القيام به بشـــكل عام ، لكنه لم يكن يقول شيئا · كنت ، لست رهينة أوامره · ولكن كان على أن أكون مسـتعدة طوال الوقت · وأنا أرحب دائما وبصفة عامة أن أعرف وجهتى · كنت فى قلب الضباب وكنت أحب ذلك ! فهذا يذكرنى بمشهد نحن الثلاثة فيه ، مسربلين بالضباب ·

ذات ليلة توجه القنصل بعد العشاء الى أخته بلهجة آمرة :

ــ غدا ، ستنظفين الحمام · قررت أن نذهب نحن الثلاثـة لنغتسل ·

ـ لكن هذا غير ممكن !

ـ بلى ، سيكون ممكنا ، غدا سيكون الحمام مخصصا للعائلة سنذهب ، أنت ومدعوتنا وأنا ٠٠

ـ لكن ٠٠

ـ لا تخشى شيئا ٠ فأنا لن أكتشف عريكما ٠

أما أنا فلم أقل شيئا ٠ أحسست أن الحارسة كانت تعتمد على التواطؤ معى لافشال ذلك المشروع ٠ فلم أكن ألوذ بالصمت فحسب ، بل كنت مسرورة وفضولية لفكرة اغتسالنا فى وضع عائلى ٠

قالت الأخت :

ـ طيب ٠ ان آخر الزبونات ينصرفن حوالى الساعة التاسعة ستجيئان قبل العاشرة ٠

نهضت وأغلقت على نفسها حجرتها ٠ كان القنصل مسرورا وان كان قلقا بعض الشىء ٠٠ قال :

ـ لا أحب أن أرى أختى مستاءة ٠ انها تعتقد ولا شك أننى أفعل هذا ضدها ٠ فمن حين الى آخر تخامرنى أفكار غريبة ٠ انها طريقتى فى الغضب ٠ لم أطلب رأيك فى الواقع ، ولن يزعجك أن ٠٠

ـ سنرى غدا ! ٠٠

ـ أقول لك هذا لأنك امرأة ، بل أنت ، حسب ما أحس ، أنثوية جدا ٠٠ فان تجدين نفسك فى الظلام والبخار مع رجل ٠

ـ معك حق ٠ لا أريد أن تعتقد أختك بأنها فكرتى ، أو هى نوع من المؤامرة ضدها ٠٠

(٩)

العهـد

حجرة الحمام الرئيسية هي وحدها التى كانت مضاءة قليلا، أما الأخريان فكانتا مظلمتين ، كان لا يمكن لبصر حاد مع هـذا الغبش أن يميز الخيط الأبيض من الخيط الأسود الا بمشقة · ولو كان الالتباس النفسى ضـوء لكان هذا هو ضوؤه · كان البخار يسربل الأجساد العارية · وكانت الرطوبة الراشحة من الجدران على شكل قطرات رمادية صغيرة ، تتغذى بالمماحكات التى عرفها ذلك الصـالون طوال الزمن · بعد أن أفرغ الحمـام ونظف ، خصص لنا ، دخلت الحارسة ، لأنها سيدة المكان ، أولا ممسكة بيد القنصل · أتبعهما أنا دون أن أنطق بكلمة واحدة · فتذكرت وصولى ، قبل شهرين ، الى ذلك المكان ، حيث تمكنت من الاغتسال بصعوبة بعد أن استعجلتنى الحارسة وأزعجتنى ساحرتان أرادتا الظفر بى · كنت أسير ببطء وأنا أتفحص الجدران · لاح لى فى الحجرة الداخلية الأشد عتمة ، شبح ، جسـد فتاة معلقة فى السقف · وكلما اقتربت ، كان الجسد يشيخ ، حتى اللحظة التى وجدتنى فيها وجها لوجه مع أمى ، وهى هتماء ، مشعثة الشـعر

من خصلات على الرقبة والوجه . عدت الى الخلف ولحقت بالقنصل وأخته في الحجرة الوسطى . كنت مقتنعة بأن ذكرياتي كانت تتغذى على دم الموتى الذي يسكب في دمي ، وكان الخليط يثير في داخلي هلوسات تطالب فيها أجساد جافة بدمها . فقررت ألا أتحدث الى أحد بالأمر . حكاية الدم الممزوج التي تلاحقني منذ موت أبي وعلى كل ، فان عملية النسيان كانت متواصلة ، فقد كنت أتقدم رغم كل شيء في دفن الكائنات والأشياء . الحمام بصفة عامة مكان ملائم للتخيلات . فالأشباح تسكنه في الليل لاجراء محادثاتها السرية . وعندما تفتح الأبواب ، في الصباح الباكر ، يشم المرء رائحة الموت ، ويعثر على قشر فستق العبيد ملقى على الأرض . فالمعروف أن الأشباح تتكلم وهي متذمرة . لكن ما رأيته عند وصولي الى الحجرة الوسطى لم يكن تخيلا ،كانت الأخت التي لفت فوطة فقط حول خصرها ، جالسة والقنصل ممدد، تدلكه . لقد كان غريبا أن أراهما هكذا .. تركتهما ينهيان تمارينهما وانزويت في حجرة المدخل حيث كانت الحرارة معتدلة كنت قد عقدت حول خصري فوطة كبيرة جدا وشرعت في غسل شعري ، عندما لاحت أمامي الحارسة ، المضحكة في عريها ، وأمرتني بأن الحق بهما .

– ماذا عندك ؟ أخي لا يبصر ، اذن كوني على راحتك وتعالي معنا .

اعتقدت بأن ذلك كان أمرا من القنصل . غسلت شعري وذهبت قربهما . كانا جالسين في الوسط ، يأكلان بيضا مسلوقا وزيتونا أخضر . كان ذلك يدخل في الطقوس – قدمت لي بيضة لم تكن مسلوقة بما فيه الكفاية . كان الصفار يسيل بين أصابعي أحسست ببداية غثيان . وأحسست للحظة بأني صرت لعبة بين أيدي هذا الثنائي الجهنمي . قوي ذلك الاحساس عندما

طلبت من الحارسة أن أغسل ظهرها بالصابون • كان القنصل يمزح فى صمت • وكانت هى مضحكة المنظر • أحسست أنى أغسل جبلا ميتا • كانت قد غطت فى النوم وارتفع شخيرهـا • وقد وضع القنصل يده على كتفى اليسرى وما لبث أن اعتذر • وطلب منى أن أدعها تنام • ظللت على مسافة منه وقد لاحظ ذلك من صوتى • كان احساسه حادا جدا بما أنه كان يقيس المسافات من خلال الصوت • قال لى بأنه مسرور لتواجده معى فى الحمام قلت له بأن البيضـــة سببت لى الغثيان • ثم نهضـت لأتقيأ فى احدى الزوايا ما كنت قد أكلته • لقد أحدث ذلك المناخ من الظلمة والبخار والرطوبة ، بالاضـــافة الى وجودنا ، اثارة بديهية لدى القنصل • عندئذ علمت بأنه لا يمكن أن تكون للعميان استيهامات على أساس الصور ، بل انطلاقا من الروائح ، وبعض الأوضـــاع الملموسة • كان القنصل قد انزوى فى ركن مظلم ، وجلس مواجها للحائط • كنت أعرف بأننى ان تركته يلمسنى سيفقد السيطرة على نفسه • وطلب منى بصوت منخفض أن أمرر الصـــابون على ظهره ، فرفضت ، فلم يعد للالحاح • لم تكن لدى رغبة ، كان يكفينى أن أنظر الى الحارسة معروضة وسط الحمام لكى أحس من جديد بالغثيان • اغتسلت بسرعة وخرجت أنتظرهما فى حجـرة الاستراحة • كنت من العياء بحيث غلبنى النوم •

عندما رأيتهما خارجين ، ملفوفين فى فوطتين كبيرتين ، فهمت بأن ميثاقا يجمعهما حتى الموت • كانا سعيدين • ربما كان فى نية القنصل أن يشركنى فى سرهما وأن يمنحنى قسطا من ذلك التواطؤ الذى كان يربطهما • وقد أبدى استياءه عندما أخبرتـه الأخت بأننى انسحبت من الحمام بسرعة • كنت أعتقد بأنه أحس بذلك ، لكن حواسه كلها كانت منشغلة • كنت أعرف بأن العميان سريعو التأثر • كان القنصـــــل يحاول السيطرة على غضبه •

وحاولت أن أجنح الى اللامبالاة بتبرماته ، تأثرت أنا الأخرى لما حدث · فى تلك الليلة لم ينم القنصل · وقد سمعته يدق على الآلة الكاتبة · أما الحارسة فكانت تشخر بهدوء · بينما ظللت أنا أنتظر الصباح · مرات عديدة طغت على رغبة جامحة فى أن أدفع باب القنصل ، وأجلس فى ركن أنظر اليه وهو يكتب · كنت أخشى رد فعله · فقد كان ثائر الأعصاب ، ومن المرجح أن تصرفى كان سبب ذلك · كنت مبلبلة ومتناقضـــة فى انفعالاتى · كان الذعر يمتزج ببهجة غريبة · لقد انقطع شىء ما فى التوازن القائم فى صلب علاقتنا · وهى علاقات ملتبسة بالتأكيد ، لكنها صريحة، وجادة للغاية وموسومة بوعود الزمن ولباقة المشاعر التى كانت لا تزال غير محددة بعد · كان ذلك بعيدا عن صواعق عاطفية مفاجئة وهوجاء · لقد كانت عاطفة ربما ، ولكنها متلعثمة ، ولا تزال بعد فى طفولة التعبير ·

العاطفة الوحيدة التى سبق لى أن عرفتها ، هى تلك التى كنت أكنها لأبى · وقد قدته حتى النهاية ، حتى الكراهية ، ثم الموت ، والكراهية بعد الموت · لكنها دمرت كل شىء فى طريقها· التعاسة جوهر كل عاطفة · انها نواتها ، ومحركها وعقلها · وهذا لا يظهر فى البداية · فقط فيما بعد ، عندما تكون الزوبعة قد فعلت فعلها ، فيكتشف المرء أن التعاسة أتمت هى الأخرى فعلها لذلك كنت أتقدم بحذر وخشية · كنت قد قررت أن أظل مترصدة بل وسلبية ·

كان لابد من تنظيف الضمير ، ومنح الوقت الكافى للجسد حتى يتحول ، وللذكريات حتى تنطفىء نهائيـــا · فتعللت بذبحة لوزية ، وظللت نائمة بالغرفة · كان لا بد من وضع فاصل زمنى من عدة أيام بين حادثة الحمام واستئناف الحديث مع القنصل·

كنت أحس بصعوبة مواجهته ، اذ لا شيء كان يغرب عنه · كان يحس بكل شيء · وكان على علم بأدق حركات نفس الشخص الذى كان يهتم به ·

ذات يوم ، وكنت لا أزال ملازمة الفراش ، طرق بابى واقترح على أن نلتقى عند الغسق فوق السطح · وقال لى بأن النهار كان جميلا ، وأن الضوء كان رائقا جدا ، وأن ذلك هو الجو المثالى للمحادثة · أجبته « بكل سرور » ، دون أن أفتح الباب ·

كنت صادقة · فقد كانت البهجة تملأ قلبى · كانت قد انقضت حوالى عشرة أيام لم نتبادل فيها حديثا · وكانت الأمور تعود شيئا فشيئا الى وضعها · كانت الحارسة مستاءة · وكانت تترك لى كل العمل المنزلى لأقوم به · كانت تلك الطريقة تذكرنى بأن مهمتى هى مهمة خادمة ، او على الأكثر مهمة شغالة · الا أن القنصل عاملنى منذ البداية بشكل مختلف · فلم أكن بالنسبة له خادمة ولا ممرضة · كانت الحارسة تحاول بحيل يائسة أن تبعدنى عن القنصل · فوضعت فى احدى زوايا المطبخ فراشا وأشارت لى بأنه منذ ذلك الوقت فصاعدا ستكون تلك هى غرفتى ولم أحتج · لقد كانت فى بيتها · ولم يكن ذلك ليزعجنى · كان سيان عندى أن أنام بين القدور أو فى العراء أو فى غرفة مريحة · لم تكن لدى أمتعة أنقلها · فنمت فى المطبخ ورأيت حلما مبهجا · كان يتعلق بسفر ما ، بباخرة وباستحمام فى ماء نقى ·

فى الصباح سمعت مشاجرة بين الحارسة وشقيقها · كانت قصيرة ولكن حادة · هل كان مشهدا تمثيليا فى اطار سيناريو معد حول وجودى بتلك الدار ؟ أم كانت فقط احدى فورات غضب الأعمى بسبب الاخلال بأحد ميوله المهووسة ؟ ربما كان يوبخ أخته لكونها نفتنى الى المطبخ ·· فى النهاية ، لم أكن أرغب فى معرفة

السبب • فلم يكن لي أن أتدخل في أمورهما • فلذت بالصمت ، وأنا أتبين الاهتمام الذي كان القنصل يوليني اياه وقد غدا كبيرا • وعلى كل ، لم أكن سوى غريبة ، متسكعة ، بلا أوراق ولا هوية ، جاءت من العدم ومتجهة الى المجهول • لم أكن عديمة الاكتراث بواقع عثوري على مأوى خلال الأيام الأولى من تسكعي • كما أن لقائي بذلك الرجل العصبي ، المثقف ، الرهيب ، كان يصير تدريجيا حدثا أساسيا في حياتي • (وهنا لا فرق بين حياتي السابقة والجديدة) • حياتي بكل ما اجتذبته وخبرته وفسخته •

كنت أغسل الأواني وأرتب المطبخ قبل أن أنام • وكانت الصراصير والنمل برفقتي • وبصفة عامة ، فان الخادمات ينمن في المطبخ ، حتى لدى العائلات الكبيرة • بذلك النفي حددت الحارسة وظيفتي الحقيقية وحدود عملي وكلامي •

لم يدم ذلك الوضع طويلا • فقد زارني القنصل ذات ليلة وطلب مني أن أعود الى غرفتي • فرفضت ، فألح ثم قال لي :

ــ انه أمر !

ــ أختك ••

ــ نعم ، أعرف ــ حدثتها في الأمر ، وهي نادمة ، وليست على ما يرام في هذه الفترة • فقد عاودها داء المفاصل ، وهي سيئة المزاج •

ــ أنا أطيع أختك ، هي التي وضعتني هنا ، وهي التي عليها أن تحدد لي مكاني الجديد في هذا الدار •

ــ معك حق • أحيانا ينبغي وضع العقل جانبا • أطلب منك هذا ••

وبعد فترة صمت أحسست بأنه كان يبحث عن كلمات مناسبة لكى يبلغنى أمرا ذا شأن ، فأضاف :

– لا أحب أن أعرف بأنك بعيدة فى هذه الحجرة التى تنبعث منها رائحة الدهن والطواجن البائتة المسخنة ٠

فى تلك اللحظة ظهرت الحارسة ، محلولة الشعر ، والاعياء باد عليها :

– معه حق ٠ لا تبقى هنا ٠

ثم اختفت ٠

فوق السطح ، توجد مائدة صغيرة ، فوقها سبسى ، وبراد وكأسان ٠ لقد دعانى الى رفقته ٠ وتحدث طوال وقت ممتد من الليل :

– رأيت بلادا عجيبة كانت تنحنى فيها الأشجار لتظللنى ، وتمطر السماء بللورا ، وطيورا مختلفة الألوان تسبقنى لترشدنى الى الطريق ، وتحمل لى الريح العطور ، بلاد شفافة القشرة ، انزويت فيها ساعات وأياما ٠ التقيت فيها بأنبياء نفوسهم فرحة ، وأصدقاء الطفولة الذين غابوا عن بصرى ، وصبايا أجبتهن حينما كنت صغيرا ، وتجولت فى حديقة غرائب لا حاجز لها ولا حارس عليها ٠ مشيت فوق عرائس بسعة احدى الزرابى ٠ ونمت على مقعد دون أن يزعجنى أحد ٠ كان نومى هنيا ، أعنى عميقا ، كثيفا وهادئا ٠ لم يكن يخامرنى أدنى قلق كنت فى سلام مع نفسى ومع الآخرين ٠ لكن الحق أقول لك ، تم طرد الآخرين من تلك البلاد ٠ لذلك وجدتها عجيبة ٠ كان الناس يمرون دون أن يتوقفوا ٠ كانوا فى عجلة من أمرهم ٠ أما أنا ، فكنت أسير ببطء ، مندهشا أمام الألوان البديعة التى كانت تزدحم بها السماء عند الغسق ٠ كنت ألاحظ بأن الناس يمضون جميعا فى الاتجاه نفسه ٠ وقد تبعتهم عن فضول ، وأيضا

لأنه لم يكن لدى أمر محدد أفعله . كانوا يتوقفون جميعا أمام عنبر ضخم خارج المدينة . لم تكن حوله منازل ولا أشجار ولا مروج . كان العنبر ، المطلى باللون الأزرق ، ينتصب وسط بقعة جرداء شاسعة . وكان الناس يدخلون اليه من باب ويخرجون من باب آخر ، محملين برزم صغيرة . كان أمرا غريبا . فوقفت فى الصف مثل الجميع دون أن أعرف سببا لذلك . وما أثار انتباهى كذلك هو أن الناس كانوا مهذبين . فكما تعرفين ، فان الحس الاجتماعى عندنا نادر . وبمجرد وصولى الى باب المدخل ، رأيت لافتات ضخمة فوق رفوف كبيرة ــ كانت كل لافتة تحمل حرفا أبجديا . كان العنبر مستودعا للكلمات . كان قاموس المدينة . يأتى الناس اليه ليتمونوا بالكلمات وأيضا بالعبارات التى يحتاجون اليها خلال الأسبوع . ولم يكن هناك البكم والتمتامون فحسب ، بل أولئك المعروفون بالكلام دون قول أى شىء ، الذين يكررون أنفسهم دون أن يتنبهوا الى ذلك ، وكان هناك الثرثارون الذين تنقصهم الكلمات ، والذين كانوا يصلون بكلمة على طرف اللسان وينظرون الى أنفسهم فى المرآة للعثور على الكلمة اياها ، والذين غالبا ما كانوا يفسرون اللافتات بشكل معكوس فيخطئون الرف ، وقد كان يوجد دليل يأخذ بأيدى هؤلاء ، وكان يوجد أيضـــا بعض الذين يحبون الخلط بين مقاطع الألفاظ ، اذ كانوا يدعون ابتكار لغة جديدة . كان العنبر على كل أشبه بقدر تحت النار . تجولت عبر الأروقة ، كانت توجد كلمات مكدسة ، علتها طبقة من الغبار . لم يكن يستعملها أحد . توجد منها أكوام تصل الى السقف . قلت لنفسى أما أن هذه كلمات لم يعد الناس فى حاجة اليها ، أو أنهم أخذوها بصفة نهائية وخزنوهـــا لديهم . وخرجت من العنبر خلال باب الخدمة ، المختفى فى الجدار برفوف عليها الكلمات المنكسرة ، التى أصابها التلف ، وكذلك كلمات ، قديمة بالية جدا لم يعد يستعملها أحد . حزنى هـــذه الكلمات ، مثلما أمر فى صمت على الكلمات النابية المودعة فى زاوية

معتمة ومغطاة بحجاب قاني الحمرة • وكما يحدث في الحكايات العجيبة ، دفعت الباب ، فوجدتني في قبو شاسع ، مضاء بنور وهاج تتجول فيه نساء سمراوات وشقراوات وصهباوات ، نساء شابات ، كل واحدة منهن تمثل نموذجا من الجمال ، وبلدا وعرقا ، وحساسية• كن يذرعن القبو جيئة وذهابا ولكن دون أن تخاطب احداهن الأخرى • كانت بعضهن جالسات وغافيات • وكانت أخريات يهتززن وحدهن ، متباهيات بالنتاج الذى يحملنه داخلهن • ذلك المجال الشاسع تحت الأرض ، كان خزانة المدينة ، دنت منى امرأة بهية أخذت تقول :

« أنهيت دراستى فى سن الثانية والعشرين بجامعة جوتينج • وكان فى نية أبى ، وزير الانتخابات (فترة صمت) أن أسافر الى أروع بلاد أوروبا •• » ثم ، بعد أن توقفت برهة ، أضافت : « أنا أدولف •• خذنى •• اننى قصة حب ، تنتهى بشكل سيىء ، هذه هى الحياة •• » طبعا فكرت على الفور فى قصة ذلك البلد الخيالى الذى حرقت فيه جميع الكتب ، والذى كان على كل مواطن فيه أن يحفظ كتابا عن ظهر قلب حفاظا على الأدب والشعر • لكن هناك ، كان الأمر مختلفا • فلم تكن الكتب ممنوعة ولا كانت تحرق • لكن شركة كبيرة وظفت نساء جميلات ممن يحفظن عن ظهر قلب رواية أو حكاية أو مسرحية ، فيقترحن أنفسهن ، مقابل مبلغ من المال ، للمجىء عندك للقراءة ، أو بأكثر دقة ، ليقلن الكتاب الذى حفظنه • لقد كانت سوقا سرية ولا شك • وقد جعلونى أدفع ثمن تذكرة بالمدخل • كانت تجلس على منضدة امرأة مسنة • لم تكن جميلة ولكن كان فى نظرتها ما ينم عن الغرابة والجاذبية • عندما اقتربت منها قالت لى : « أنا رسالة غفران ، كتاب لم يقرأه حقا غير قلة من الناس ، كتبت عام ١٠٣٣ ، وكان مبدعى قد ولد بمعرة النعمان ، شمال سوريا ، فى منطقة حلب •• أنا كتاب صعب يتحاور فيه

الموتى ، وتصفى فيه الحسابات برجاءات شعرية ، وفيه تطول الاقامة في الجنــة على الاقامــة فى النار ٠٠ » كانت تلك الخزانة البشرية مزدحمة جدا ٠ حتى أنه كانت هناك صبية تتمايل فوق أرجوحة وتتلو عوليس : « ٠٠ لن أظل بعد كل حساب ملتصقة هنا طوال الليل مثل احدى الصحفيات ٠ وحسب الضوء ، لن تتجاوز الساعة التاسعة ٠٠ » وفى حجرة مزخرفة على الطريقة الشرقية ، كانت هناك حوالى عشر نســاء جميلات ، ترتدين جميعا زى شهر زاد ، وقد اقترحت كل منهم أن تحكى قسما من ألف ليلة وليلة ٠ كان العجب العجاب ٠ لقد سبق أن قلت لك فى البداية ، كان بلدا خارقا ٠ وكانت تلك الخزانة أعجوبة ٠ عند مغادرتى لها ، اقترب منى رجل مسن ، يرتدى الأبيض ، همس فى أذنى : « انه لمن الرجس التطابق مع عمل ما ٠ أية وقاحة فى أن يعتبر المرء نفسه أيام طه حسين ، أو الكوميديا الانسانية لبلزاك ! أنا لست ســوى قارىء ، قارىء بائس للقرآن ٠٠ هل تتخيل جسامة الهرطقة التى سأقترفها لو أننى

اعتبرت نفسى الكتاب الكريم ٠٠ مثل تسليم مفاتيح العالم والتعاطى للحمق المطلق ٠٠ بعد هذا اذا كنت فى حاجة الى أحد ليقرأ بعض الآيات على قبر عائلتك ، فأنا فى خدمتك ٠٠ » انه بلد عجيب ٠ بلد مضاء بأنوار ليالى المجللة بالسهاد ٠ وعندما أغادره أغدو حزينا ٠ فأتوق اليه فى كل مرة أشرع فيها عينى على العتمات الأبدية ٠ ارادتى وحدها ورغبتى لا تكفيان لكى تنفتح أمامى من جديد أبواب ذلك البلد ٠ لا بد من حالة نعمة ، من استعداد خاص لهذا ٠ ففى الواقع ، فان ذلك البلد هو الذى يأتى نحوى ٠ هو الذى يزورنى بحدائقه ، وقصوره ، وسراديبه التى تعج بحياة خارقة ٠ انه سرى وسعادتى ٠ لكننى أعترف بأن هذه الأشكال من السراب ترهقنى أحيانا ٠ انها تنهكنى بجمالها الخيالى ٠ لكن هذه هى الحياة ٠ ومنذ وجودك فى الدار قلت حاجتى الى الذهــاب للضياع فى متاهات ذلك المجــال

المتحرك · قد تكونين سليلة ذلك البلد ؟ سبق أن طرحت السؤال على نفسى · أقول هذا بسبب عطر حضورك · انه ليس عطرا صادرا عن قارورة ، بل هو يتضوع من جلدك · هذا هو العطر الوحيد للكائن · موهوب بشكل خاص فى شم هذا الدليل · سامحينى ، فقد تحدثت طويلا ، واستغللت صبرك · قد يكون غلبك النعاس · حتى الشاى لم نشربه · صار باردا · ليلة سعيدة !

نمت دون عناء ، وحلمت طوال الليل بالبلد السحرى · كان كل شىء فيه متوهجا ، لكننى لم أعثر على طريق الخزانة ·

(١٠)

نفس منكسرة

١

لم ألحظ أو لم أكن أريد فى البداية أن أرى غير وجه الحارسة المليء بالكراهية · كراهية الذات ، أكثر من كراهية الآخرين · فقد كان تبين ذلك صعبا · كان يمكن أن تقرأ عليه ، خاصة عندما تكون نائمة ، آثار اخفاقات عديدة · خرابا لم يكن قناعا بل مكابدة يومية · وممارسة الكراهيــة وحدهــا كانت تحمى تلك المرأة من الانهيار البدنى وترد عنها الموت · موت لن يسببه دمار الجسد ، بل يأس هائل ، أسى وعجز لا نهائى يقود الى الظلمات ·

ذات ليلة ، بعد العشاء ، بينما كان القنصل يضرب على الآلة الكاتبة ، أقبلت نحوى واقترحت على أن أشرب شايا معها فوق السطح ، قلت لها :

ـ الشاى يمنعنى من النوم ·

ـ سأعدلك اذن لويزة ، لكن ما سأقوله لك سـيطرد عنك النوم ·

ـ ماذا ستقولين لى ؟

ـ لا تخشى شيئا ! سأقول لك من أنا . هذا كل ما هنالك . وعندما ستعلمين من تكمن خلف هذا الوجه ، ربما ذهب عنك النوم .

قامت بنفس حركات القنصل فأعدت الكيف ، ودخنت سبسبين أو ثلاثة ، ثم شرعت فى الحديث . كنت أشرب لويزتى وأنصت اليها ، لأننى كنت فى البداية مرغمة على ذلك ، وبعد ذلك لأن الأمر كان رهيبا . كانت تتكلم أسرع من المعتاد وتلوذ أحيانا بفترات صمت طويلة :

ـ أعرف ما تشيعينه عنى فى ذهنك . لا تشيعين شيئا ، أو فى كل الأحوال لا تشيعين شيئا سيئا . ليس بعد . انك تحيريننى بصبرك ، حتى ليمكن القول بأنه نوع من اللاءبالاة أو السلبية . أحيانا يثير أعصابى هذا الشعور . لكن لا يهم . اعلمى بأننى أعرف من أكون . فقد كانت ولادتى على الأرجح غلطة . اذ عندما كنت صغيرة ـ ولدت دميمة وبقيت كذلك ـ غالبا ما كنت أسمع أحدهم يقول عنى : « ما كان يجب أن تكون هنا هذه المصيبة » ، « هـذه الصبية وليدة الجفاف » . كنت طفلة معوقة ، ولم أكن أبدا فى موقعى . كان جسدى المتعب زائدا . وحيثما كنت أذهب كنت أرى القنوط والخيبة على وجوه الناس ، وخاصة الكبار منهم . أنا لست شريرة من حيث المبدأ . ولكنى أدافع عن نفسى فحسب . وحتى عندما يرتكب أحد شيئا فى حقى ، أدافع عن نفسى فحسب . انها قاعدة سـلوك ألا أستسلم . وأن أكون متقدمة على المؤاخـذات الاغتياب . ولهذا لا يخفى على شىء . لقد أبعدنى الأطفال منذ البداية من ألعابهم . لا أحد كان يرغب فى هذا الوجه الذى لا رواء فيه . كنت أعرف الذين كانوا يتضايقون من حضورى المزعج لهم . كان والداى تعسين . يحملان الانكسار على الوجه . وكنت أنا انكسارهما الخاص . فأنجبا طفلا ثانيا للتغلب على ذلك الانكسار . وعندما ولد

أخي أقاما حفلا كبيرا . كانت بالنسبة لهما نهاية الجدب . لكن أخي اليائس صار أعمى بعد أن أصيب بالحصبة . وعاد الشقاء من جديد الى تلك الأسرة . لقد أحسست بنفسي مسؤولة . فكان ذلك الطفل هو النور والطرافة في بيت لم يكن يعرف الضحك أبدا ولا اللهو . وفي بضعة أيام حرم نهائيا من النور . كانت المرة الأولى التي سمحت فيها للدموع بالانسياب على وجهي . كانت الطعنة قد أصابت قلبي . لم تصب وجهي الذي ظل محتفظا بنفس السمات . أنا لا أحب الذين يبكون . فلكي يبكي المرء لا بد أن يكون قد نال قسطا من الحنان . وأنا لم أنل شيئا أبدا . لقد فهمت ، من خلال تلك المصيبة التي اعتبرتها أعظم من مصيبتي ، بأنني ولدت من خسارة . لقد سقطت مثل المطر الضار ، ذلك الذي لا ينتظره أحد ، ذاك الذي يخشى لأنه يتلف البذور . ووفرت كل طاقاتي لكي أجعل الأبرياء يؤدون ثمن صدقة تلك الولادة ، أعرف هذا : فوجهي مثل رسم مائي مرت عليه خرقة . وجهي في غير موضعه . وكل ما لدي مائل ، الجسد وما بداخله . لقد اختزنت من الكراهية ما يجعلني في حاجة لحياتين على الأقل حتى أتمكن من صب كل شيء . لكنني أعترف لك بأن الكراهية لا تلائمني تماما . لأنه كي يكره المرء لا بد له أن يحب ، ولو بقدر يسـير . وأنا لا أحب أحدا ، بدءا بنفسي . أما ما أكنه للقنصل فيتعدى الحب بالطبع . انه تنفسي ، نبضات قلبي . لكنه لا يصلح للعيش . كان يكفي أن تدخلي الى هذه الدار لكي يبتسم من جديد . كان الجو قبل ذلك خانقا . فقد صار القنصل عدوانيا ، عنيفا وظالما . لذلك ما أن رأيتك ، ضائعة ودون قيود ، حتى اقترحت عليك المجيء للسكن معنا ، لست في حاجة حتى لأن أعترف لك بذلك ، فأنت تعرفينه . لقد أدخل حضورك بصيصا من النور الى هذه الدار . أنت بريئة ، لكنني لست كذلك . فقد تركت أبوي يموتان . بل لم يكن هناك على ما أظن أحد عند دفنهما . كنت قد غادرت البيت مع أخي حاملة الأشـياء القليلة

الثمينة ، وتركتهما مع عجوز مجنونة . ثم انصرفت ، دون تردد ، ودون أن أذرف دمعة واحدة . لقد أفرغت حياتي من كل ما يمكن أن يشبه الأمل . ومنذ ذلك الوقت ، وأنا أدوم مع بقائي جالسة . وكبر أخي في أحضاني . صرت عينيه ، وعملت بلا كلل حتى لا ينقص شيء . أنا لا أطلب اعترافا بالجميل . انى أخاف من فقدانه . فساعديني حتى لا أفقده . انى أستشعر النكبة ، ولست مستعدة للكارثة . الا أني أراها على البعد ترتسم ، مثلما أرى شخصا ما ، ظلا ، وربما رجلا ، أو بدقة أكثر ، امرأة متنكرة في هيأة رجل ، تسير على طول تلك الطريق ، بمفردها ، تحت غسق زهيد ، أعرف ، أحس بأن ذلك الظل قادر على وقف الكارثة . لست عرافة ، لكن لدى أحيانا استشعارات قوية جدا بحيث يغدو كل شيء جليا في ذهني . ذلك الظل ملامح . أرسلك القدر ولا نعرف من تكونين ، ولا من أين جئت أو ماذا يروج في ذهنك . ان القنصل يبدو سعيدا معك .. على كل ، يفيده وجودك . وأنا مضطرة لاستبقائك بما أنك عرفت كيف تعيدين لأخي الرغبة في الابتسام والكتابة . انقضت أشهر دون أن يستخدم آلته الكاتبة . لا أعرف ماذا يكتب . لكن ذلك مهم ولا شك ، فاذا طلب منك أن ترافقيه الى مكان يدعوه ب « الحديقة العطرة » فلا تنزعجي وبشكل خاص لا ترفضي . فهو يذهب اليه مرة في الشهر تقريبا . وكنت أرافقه فيما مضى . لكنه لا يحب أن يظهر معي في الوقت الحالي . يخجل من أخته التي تقضي حياتها جالسة بمدخل الحمام . لم أعد حارسة أسرار ، بل أحرس ملابس بالية . هذا كل ما هنالك . وليس ثمة ما يجعلني فخورة . فأنا أمارس مهنة سيئة السمعة . وأنت ماذا كانت مهنتك قبل مجيئك الى هنا ؟

توقفت لحظة ، وحشت سبسيا بالكيف ثم قدمته لي قائلة :

– به ستتكلمين .. انه يساعد .. يحرر !

دخنت • وعندما ابتلعت الدخان ، أحسست بصداع وسعلت • كانت عيناها مليئتين بالقلق واللهفة •

ـ أريد أن أعرف • ألح في ذلك • من أنت ؟ أى شيء معجز تحملينه بداخلك ؟ كيف نجحت فى اعادة الحياة لمحتضر ؟

هكذا عرفت منها ما استطاع حضورى وحده أن يثيره فى ذلك الرجل الذى كان يختنق فى دار العتمات تلك • كنت أنا نفسى مندهشة ، ألحت مرة أخرى الى حد التوسل الى حتى أتكلم • لم يكن لدى ما أقول ، فانخرطت فى التحسر والبكاء • وكى أضع حدا لهذا الوضع المضحك رضيت أن أقول بعض الكلمات :

ـ قبل أن أحل بهذه المدينة ، حظيت بامتياز الاستحمام فى عين ماء ذات فضائل استثنائية • واحدة من تلك الفضائل الحيوية بالنسبة لى هى فضيلة النسيان • لقد غسل ماء تلك العين جسدى ونفسى ، ونظفهما وأعاد ترتيب ذكرياتى بصفة خاصة ، أى أنه لم يحتفظ من ماضى سوى بالقدر اليسير ، فبقيت ثلاث أو أربع ذكريات ثابتة • أما الأخرى فتلاشت ، وأرى مكانها أنقاضا وضبابا • كل شيء ملفوف فى غطاء قديم من الصوف • والوصول الى تلك العين ، يستدعى التجرد من كل شيء والتخلى نهائيا عن الحنين • لقد أتلفت أوراق هويتى وتبعت النجمة التى تخط طريق قدرى • وهـذه النجمة تتبعنى فى كل مكان • يمكننى أن أريها لك اذا شئت • يوم تنطفيء سيكون هو يوم موتى • لقد نسيت كل شيء : الطفولة ، والأهل ، والاسم العائلى • وعندما أنظر الى نفسى فى المرآة ، أعترف بأننى أجد نفسى سعيدة ، اذ أن هذا الوجه ، الجديد على •• لقد كان على أن يكون لى وجه آخر • ومع ذلك هناك أمر يقلقنى : اننى مهددة باللامبالاة ، بما يسمى صحراء الانفعالات • اذا لم أعد أحس بشيء ، سأذبل وسأندثر • فلسنا ،القنصل وأنت وأنا ، بأناس

عاديين . ومن الأفضل اذن أن نضحك .. لأننا عابرون لا أكثر .. فلا ينبغي أن نسمح للزمن بأن يسأم من وجودنا ، لنتصرف بحيث نرضيه بعض الشيء ، بقليل من الخيال ، باللون مثلا ، ان القنصل يعشق رقة أشكال الألوان ، وليس غريبا أن تكون هذه العاطفة نابعة من أحد العميان ..

كان لأقوالى مفعول المهدىء . كانت الحارسة تنظر الى وأنا أتكلم بعينين مبللتين بالدموع . كانت قد فقدت ذلك الملمح القاسى الذى كانت تظهره ، ولم تعد تبدو على وجهها الكراهية التى كانت تقول بأنها مشبعة بها . كنت قد نجحت فى تهدئتها وتحريك مشاعرها . علما بأنى لم أقل لها شيئا مؤثرا بحق . وبعد فترة صمت ، ارتمت على يدى وأشبعتهما تقبيلا . كنت مستاءة ، وقد حاولت سحبهما ، لكنها كانت تمسك بهما . كانت قبلاتها ممهورة بالدموع . كانت تعتذر :

– عذرا . سامحينى لمخاطبتك بلهجة حادة . فأنت ملاك مرسل من قبل الأنبياء . ونحن عبداك ..

وكى أنهى هذا المشهد القاسى ، أطلقت صرخة :

– كفى ! لست ملاكا ولست مرسلة ! انهضى !

كان صوت الآلة الكاتبة يسمع بانتظام ، كما لو أن القنصل يكتب باصرار الكلمة ذاتها .

(١١)

فوضى المشاعر

استعصى على النوم • كنت أسمع الحارسة تبكى فى أحد الأركان ، بينما كان القنصل يذرع غرفته ذهابا وجيئة • عنت لى للحظة فكرة الرحيل عن تلك الدار وتجربة حظى فى مكان آخر • لكن شيئا ما كان يستبقينى • اهتمامى طبعا بالقنصل ، والاضطراب الذى كان حضوره يولده فى داخلى • وأيضا استشعار حاد جدا : فأينما ذهبت لن تكون لى سوى علاقات مضطربة ، ولن ألتقى بغير أناس من الغرابة بمكان • كنت مقتنعة تماما بأن تلك الأسرة أو بالأحرى هذين الشخصين مقدران لى • كانا فى طريقى • وكان من الضرورى أن أدخل الى تلك الدار وأن تثير طبيعتى القلاقل بها • فى الوقت الحالى ، كانت ثمة فوضى فى المشاعر • لا شىء كان واضحا • من كان يحب من ؟ من كان من صالحه ذلك الوضع ؟ كيف الخروج من هذه الدار بدون مأساة ؟

وعرفت أن الحارسة كانت ترفض منذ وقت طويل ، دخول النساء الى الدار • كانت تحتفظ بشقيقها ، عن غيرة ، تحت سلطتها • وكان هو يتمرد ، لكنه كان فى حاجة اليها • أعتقد أننى

وصلت الى تلك الدار فى وقت كان التوتر فيه على وشك الانفجار والافضاء الى ما لا يمكن تفاديه ٠

لقد أصبحت ، أنا الخارجة من غيبة طويلة ومرض ، نافعة ٠ كانت الحارسة مختلة بالتأكيد ٠ فقد كانت تحمل فى داخلها بغض الرجال وتحتفظ لشقيقها بحب العالم كله ٠ ومن حين الى آخر كانت تتحدث عن سائق عربة كان يعطيها مواعيد فى أماكن غريبة مثل فرن الخبز الملاصق للحمام أو مرسم أحد الخرافين بضاحية المدينة ٠ وفى احدى المرات ، تلاقيا قبيل منتصف الليل بأحد المساجد ٠ كان كل منهما متدثرا فى جلباب رمادى ، فلم يلحظهما أحد ٠ وفوجئا بالصباح الباكر عند صلاة الفجر ، ففرا مثل لصين ٠ واختفى سائق العربة منذ ذلك الوقت ، ولم تعد الحارسة تبقى فى انتظاره ٠ وعندما كانت تهذى ، تحكى تلك القصة مرارا وتزعم بأن القنصل كان ثمرة هذا الغزل ! فلأنها لا تستطيع تقديمه كلقيط ، تقول بأنه شقيقها ٠ وكل هذا غير صحيح ، فقد كانت تقول ما يعن لها ٠

فى اليوم التالى أوشك حادث جديد على زيادة التوتر الذى كان يشدنا الى الحياة ٠ فقد عاد القنصل متأخرا ٠ كان متعبا ومنفعلا من شىء ما ٠ أسرعت الحارسة لمعاونته فى خلع جلبابه ، فصدها بحركة من يده ، لكنها نجحت فى تجنبها وفى لمح البصر صار الجلباب بين يديها ٠ ذهبت الى المطبخ لتسخن الماء لتدليك القدمين ٠ أما أنا فلم أتحرك ٠ وبقيت أنظر الى المشهد ٠ كان القنصل حانقا :

– تعرضت للسخرية ! هذا أمر لا يحتمل على الاطلاق !

خلع نظارته السوداء ومسحها بعصبية :

– القذرات ! دسسن لى العوراء ٠٠ نعم ، تلك التى لا يرغب فيها أحد ٠

من المطبخ تدخلت الحارسة :

ــ سيعلمك هذا معنى الذهاب الى هناك بدونى · لو كنت هناك لما تصرفن معك على هــذا النحو · على كل ، أجلس ، فالماء ساخن ·

جلس القنصل على أريكته · أقبلت الحارسة بقدر الماء الساخن وقد وضعت على كتفها فوطة · ثم جثت على ركبتيها وأخذت القدم اليمنى بين يديها · وبمجرد لمس القدم للماء ، ندت عن القنصل صرخة ، وبحركة مباغتة طرح أخته أرضا · فوقعت وكاد رأسها يصطدم بطرف الطاولة :

ــ الماء محرق ! وقد فعلت ذلك متعمدة · تريدين عقابى على ذهابى الى هناك انصرفى · لا أريد أن أراك ثانية · من الآن ستكون المدعوة هى المسئولة عن تدليك قدمى ·

وغير لهجته وهو يسألنى ان كنت أرغب حقا فى تأدية تلك الخدمة له ·

رمتنى الحارسة بنظرة صاعقة · فأحسست بالشفقة نحوها · كانت تعسة لأنها جرحت وأهينت · ثم قالت لى :

ــ هلمى ، سيكون ذلك أفضل !

لم تكن لدى فى الحقيقة أية رغبــة فى تدليــك قــدمى ذلك الديكتاتور الصغير · لكن كيف أرفض ذلك دون أن أفجر أزمة جديدة ؟ اقتربت منه ودون أن أرفع صوتى قلت له :

ــ هذه المرة ، تصرف بنفسك ·

تركته وقدميه فى الماء ، ولحقت بالحارسة فى المطبخ ، كنت قد فهمت سبب سخطها ، لكننى كنت أريد معرفة المزيد ·

ـ تريدين معرفة كل شيء !

ـ نعم ٠

ـ كل هذا نتيجة خطئى ٠ فلم أرفض له أبدا أى شيء ٠ كنت أنفذ كل نزواته ٠ ومنذ وجودك هنا وهو يحوم حول الاستغناء عنى ٠٠ يود لو تأخذين مكانى ٠٠ أنا لا ألومنك ٠ لكن اعلمى أنه شخص لا يطاق ٠ فمن الأفضل الا تحبينه ، أن تضعى بينه وبين بقية العالم حجابا واقيا ٠

جلست على مقعد وأخذت تحدثنى بصوت منخفض :

ـ فى البداية كانت مرة فى الشهر ، بعد ذلك صارت مرتين ، ثم ثلاث مرات ٠ كان يرغمنى على مرافقته ٠ كنت أصف له النساء ٠ طبعا كان ذلك يضايقنى كثيرا ٠ كنا ندخل من باب خلفى ٠ ومن حيث المبدأ لم يكن يرانا أحد ٠ كانت السيدة متفهمة ٠ كانت تجلسنا فى حجرة وتعرض علينا ٠ وكان دورى يتمثل فى الاجابة على أسئلة دقيقة ، من نوع : لون البشرة ، لون العينين ، هل لها أسنان ذهبية ـ فهو يمقت الأسنان الذهبية ـ استدارة الصدر ، استدارة الخصر ، الخ ٠٠ وكنت أقوم بواجبى ٠ بعد ذلك ، كنت أنتظره فى الطريق ٠ كانت أشق اللحظات على هى انتظار القنصل ٠ وكان الوقت يطول أحيانا ٠ كنت أفكر فيه ، وأفكر فى حياتى ، وكان ثمة طعم مر فى حلقى ، كانت كل مرارة العالم تتجمع فى فمى ٠ وكنت أقول لنفسى : « حسبى أن يكون راضيا » ٠ بعد ذلك ، كان يسود الدار سلام ورفق رائعان ٠ كان يعود وديعا ، منتبها وحنونا ٠ فكرت يوما فى أن أجد له امرأة للزواج فرفض ٠ وفهمت أن العميان فى حاجة لأن يعيشوا أوضاعا ملموسة ، ذلك أن الصور لا توجد بالنسبة لهم ٠ على كل ليس كما هو الشأن عندنا ٠ كنت أرافقه ٠ لكن منذ وجودك هنا ، وهو يذهب دون

اخطارى ٠ وأنا أدرك ، انه يرغب فى التحرر ، ولم يعد يرغب فى أن أكون عينيه ٠ هذا الأمر لم يكن ليستمر ٠ فهـذا النوع من الأوضاع لم يكن مما ينبغى أن يكون بين أخ وأخت ٠ لكن ثمة أمور كثيرة بيننا ما كان ينبغى أن تكون ٠ ٠فعندما كان صغيرا ، كنت أغسله ٠ أمرر عليه الصابون ، أدلكه وأنظفه وأنشفه ٠ كان مثل دمية بين يدى ٠ وكان يجد فى ذلك متعة جلية ، حتى اليوم الذى صارت فيه هذه المتعة ، كيف أقول لك ؟ صارت هذه المتعة كيفا ٠ كان يأتى ويضع رأسه على صدرى ٠ كان يلتصق بى ، وجهه يحمر ، وعيناه المفتوحتان ، عينا رجـل ضـائع ، تائه فى الصـــحراء كان يقول : «أرغب فى أن تغسلينى ٠ ٠ » ٠ لم يكن طفلا ٠ كان يبقى بمفرده فى الحمـام مـدة طويلة ٠ لم أكن أتفوه بكلمة لم أكن أتفوه بكلمة أبدا ٠ كنت سأفعل أى شىء من أجل سـعادته ٠ وحتى اليوم بامكانى القيام بأى شىء لكى أحتفظ به ٠ لكنك جئت ٠ أنت مذتذ.تنا الملاك الذى صار مطلعا على كل شىء ٠ اما أن تلعنينا أو تنقذينا ٠ ملاك مبيد سيرتب هذا النسيج العنكبوتى ٠ أو تتحولين من زنجية الى متواطئة لا شىء لمن يملك ٠ ليست بحوزتى غير أوهام ٠ فأنا لا أملك شيئا أنا عبدة ولا تنقصنى غير الندوب على الوجنتين لأكون زنجية مطلقة التفانى ، موهوبة له مدى الحياة ، حتى الموت ٠ هذا كل ما فى الأمر ، وأنت تعرفين الكثير منه فى الوقت الحالى ٠ سيكون من الصعب عليك أن تنسجى من هذا الجحيم ، جحيما أو جنة ٠٠ لك أن تقررى اننا أناس الليل ؛ فالقنصل يحمل الليل فى عينيه الى الأبد ، وأنا أبحث عنه الى حد الهوس به ؛ أما انت فقد ولدت دون ريب فى تلك الليلة الرهيبة التى تنتهى فيها الأقدار ، ويحس فيها كل مسلم برعدة الموت تعبر جسده ٠ على كل ، عندما رأيتك تدخلين الحمام مذعورة قرأت قدرا فى عينيـك انك أرســلت الينـا مـن ليلة القــدر الأخيرة ٠ وعلمت فى الحال أنك وحيدة فى العالم ، بدون أهل ولا

عائلة ولا أصدقاء · لا بد أنك واحدة من تلك المخلوقات الاستثنائية المنحدرة من عزلة مطلقة · هذا واضح · ويمكنني القول بأني كنت مطلقة · هذا واضح · ويمكنني القول باني كنت أنتظرك · ففي ليلة السابع والعشرين من رمضان ، رأيت رؤية جلية تماما ، انقبض لها قلبي · فحتى أنا ، وعلى الرغم من أنني لست مسلمة صالحة ، أحسست برعدة الموت الخفيفة تعبر جسدي من أعلى رأسي الى أخمص قدمي · ورأيت شبحا ينحني على سرير القنصل ويقبل جبينه · فاعتقدت أنه الموت يقترب منه على ذلك النحو · اندفعت الى غرفته فوجدته ينتحب كالأطفال · كان يبكي ولا يعرف السبب · وللمرة الأولى منذ بدء حياتنا المشتركة ، حدثني عن أمنا · كان مقتنعا بأنها لا تزال على قيد الحياة وأنها ستزورنا · أخذته في حضني ، وهدهدته كما لو كان رضيعا وأعطيته صدري · وعاد الى النوم دون أن يبتعد عن صدري ·

(١٢)

غرفة القنصل

وهكذا تحدد مصيرى ، فأصبحت العنصر الأساسى لهذين الشخصين غير العاديين • كان عمل النسيان دون علم منى وكنت أستقر تدريجيا فى قصة الحارسة والقنصل •

فى ليلة عيد ، لم أعد أذكر أى عيد بالضبط ، اشترى القنصل دجاجتين حيتين وحملهما الى الدار • انتهز فرصة غياب أخته وقرر ذبحهما بنفسه • كل ما من شأنه أن يبين عاهة القنصل أو يجعل منها ذريعة كان يتم تجنبه بعناية • كانت شفرة الموس تلمع فى الشمس ، وكان القنصل متحمسا جدا لفكرة ذبح الدجاجتين • اقترحت عليه أن أعاونه ، رفض • كان يجلس القرفصاء ، وهو يمسك بجناحى الدجاجة بقدمه ، وبيده اليسرى يحاول ايقاف عنقها ، ثم ذبحها باليد اليمنى • انتفضت الدجاجة ولطخت الجدران والملابس بالدم • وبينما كانت ترتعش فى أحد الأركان ، رأيت القنصل ، مسرورا ، يعيد العملية نفسها مع الدجاجة الأخرى • كان يتصبب عرقا وكانت أساريره متهللة • وعندما كان يمرر الموسى بفظاظة بالغة جرح سبابة يده اليسرى • كان الدم فى كل

مكان • وقد أخفى القنصل أصبعه فى منديل • كان يتألم كثيرا ، لكنه لم يبين ذلك • فقل ضحكه ، فبالنسبة له كان نصف نجاح • وعندما كنت أغسل الدم فوق السطح ، ملأ أنفى بخور الجنة ، وعلى الفور عاد بى ذلك العطر الى صورة حفل صـدحت فيه الموسيقى بكثرة • كنت فى الثالثة أو الرابعة ، ممسكة بين ذراعى أبى الذى قدمنى الى حلاق يمارس الختان • حضرنى من جديد منظر الدم ، والحركة المباغتة ، الحاذقة التى ضرجت يد أبى بالدم • لطخ سروالى الأبيض وفخذى بالدم •

كانت ذكرى ملطخة بالدم ومعطرة • أطلقت ضحكة صغيرة ، ثم أخـذت أفكر فى جنون ذلك الأب العنيد ، المأخوذ فى دوامة الشقاء • ودون أن أنتبه وضعت يدى على بطنى ، ربما لكى أطمئن نفسى ، واستأنفت تنظيف السطح •

كان القنصل قد لف بنفسه اصبعه فى ضمادة • وكان بالرغم مما حدث فخورا بنفسه • كنت أضحك وأنا أفكر فى سخرية الوضع الذى أحاط أبى نفسه به • وكان القنصل يتألم فى صمت معتقدا أنه كسب تحديه للعمى •

كان يسود الدار جو مختلط من الشك تارة والتواطؤ تارة أخرى • فوجدت نفسى فى قلب مأساة تجرى وقائعها منذ زمن طويل • أنا الشخصية التى كانت تنقص تلك المسرحية ومنصتها الدار • وصلت فى اللحظة التى استنفدت فيها النزاعات ، والمأساة ، التى كانت على وشك التحول الى مأساة هزلية • كان سيمتزج فيهـا الدم بالضحك ، وتتدمر المشـاعر بالالتبـاس والفوضى والانحراف • فقد وصل بى الأمر الى الشك فى أواصر القرابة المعلنة بين الحارسة والقنصل ، كأخ وأخت مسرحيين ، كظلين خارجين من ليلة قديمة ، داكنة بتقيؤات نفس فاسدة • ربما لم يكن كل شىء

سوى لعبة ، حيث تكون الحياة اكسسوارا وعنصرا شعبيا . وتكون الحارسة محركة محترفة ، والقنصل منحرفا متنكرا فى هيئة أعمى ، وأكون أنا الطريدة المثالية من أجل قنص خيالى فى مكان مغلق بأعلى صخرة ! .. قلت لنفسى أنت عشت أكثر مما ينبغى فى الكذب وخيال الظل بحيث لن ينقصنى التنبه الى تورطى فى مسألة غريبة ، بل ربما كانت قذرة . وبناء على ذلك قررت أن أضاعف يقظتى وأن أحتفظ بأوراق اللعب الضرورية لخروج مشرف أو هرب مفاجىء . وكان لا بد من فحص حالة الأمكنة والأشخاص .

بينما كنت أنظف غرفة القنصل ، أخذت أنظر الى الأشياء وأبحث مفتشة بطريقة جيدة المحتويات المرتبة فى الدولاب . لم يسبق لى أن فتحت تلك الخزانة . ففى جهة كانت توجد ملابس مطوية بعناية ، وفى جهة أخرى سلسلة من الأدراج المليئة بالأشياء : فى الدرج العلوى مجموعات من المفاتيح معظمها صدئة ومفاتيح قديمة ، ومكسورة ومزاليج سودها الغبار المتخلف من دهون عديدة ومسامير من جميع الأشكال والأحجام .

أغلقت هذا الدرج بعناية وفتحت درجا آخر بالصدفة . كانت فيه حوالى عشرين ساعة كلها تعمل ، ولكن كل واحدة تشير الى وقت مختلف . وكأنه معمل صغير للزمن ، لم أتمكن من تبين منطقه . بعض الساعات ذهبية ، وبعضها فضية .

فى درج آخر توجد كل أنواع النظارات والمونوكلات . نظارات شمسية ونظارات طبية ، نظارات فارغة أو نصف مركبة . وفى العمق مجموعة من الأوراق المربوطة ، روشتات أطباء عيون ، وفواتير نظارات ، ونشرات كشوفات لتحسين الرؤية قديمة التواريخ .

واصلت تفتيشى محاولة اقامة صلة بين محتويات مختلف الأدراج . فتحت درجا آخر ، كان مفروشا بثوب مطرز . وكانت

عدة أمواس حلاقة مرتبة فيه بعناية ، وكانت شفراتها لامعة . فى احدى القوارير وضعت عين خروف تسبح فى سائل أصفر . كانت العين تنظر الى ، وتبدو كأنها حية ، تحرس الأمواس . أحسست ببداية غثيان ، فأغلقت الدرج برفق .

اكتشفت بعد ذلك ما روعنى : ففى الدرج الأسفل ، لم يكن يوجد شىء . وفى اللحظة التى تهيأت فيها لاغلاقه ، لاحظت بأنه أقل عمقا من الأدراج الأخرى . فتحته حتى النهاية ودفعت الفاصل ، فظهر لى مسدس ملمع بعناية ، وفى حالة جيدة للاستعمال . كان فارغا وكانت توجد ثلاثة أمشاط مليئة بالرصاص .

ـ لماذا كان يحتفظ بذلك السلاح ؟ ما يجمعه كان يحيرنى ، لكنه لم يقلقنى . أما ذلك المسدس الجديد تماما فقد أخافنى . هل وجد للقتل أم للانتحار ؟ جلست على طرف السرير وحاولت أن أفهم معنى كل تلك الأشياء . أمامى ، الآلة الكاتبة ، ورزمة من الأوراق البيضاء ، وملف يضم صفحات مطبوعة . نهضت وفتحت الملف برفق ، ثم أخذت أتصفحه وأقرأ بالصدفة . كان عبارة عن مذكرات ، لكن كانت به أيضا قصة وحسابات وأوراق ملصقة ورسوم فوضوية .

فى احدى الصفحات ، كتبت هذه العبارة وتحتها خط أحمر : « كيف يمكن الذهاب الى ما وراء الموت ؟ لقد قام البعض بنصب تماثيل لهذه الغاية . منها تماثيل رائعة جدا ، وأخرى رهيبة . أنا أعرفها أفضل من الذين يشاهدونها . فأنا ألمسها وأداعبها وأقيس كثافتها وثباتها . الحل لا يكمن هنا . ولن أقترح على الخلود تمثالا أو اسما فى شارع ، بل حركة سيعتبرها بعضهم عبثا . ويعتبرها البعض الآخر جليلة ، ويراها المسلمون البسطاء بدعة ، وهى بطولية فى رأى المتآلفين مع الموت ، الذين يحرقون المقابر .

انها حركة ستباغت الموت ، ستتقدم عليه وتطويه وتنميه فى حزمة تبن تضرم فيها النار أيد بريئة ، أيد أطفال ستتسمر بالنور الذى لا يطاق ، الذى ستخلفه هذه الحركة ٠٠ » ٠

فى تلك اللحظة ، سمعت وقع خطوات فى الدرب ٠ كان القنصل عائدا ٠ رتبت كل شىء بسرعة وواصلت التنظيف ٠ وما لبث القنصل أن وصل حاملا باقة كبيرة من الزهور ومدها لى :

ــ هى لك ٠ اخترت الزهور بنفسى ، واحدة بعد أخرى ٠ الزهور نادرا ما تقدم عندنا ٠ ان صبرك وحضورك يستحقان أن يزينا بالزهور ٠

جلس على الأريكة ٠ وعندما كنت أتأهب لتسخين الماء لقدميه قال لى :

ــ الى أين أنت ذاهبة ؟ لا أريد من الآن أن تهتمى بى كشغالة ٠ لا قدر بعد اليوم ، ولا تدليك للقدمين ٠ انتهينا ٠ أنت تستحقين ما هو أفضل بكثير ٠ وفى المقابل ، فأنا حريص على أن تكونى لى بمثابة شريكة فى أفكارى ٠ أحب أن تكونى بقربى عندما أكون منهمكا فى القراءة أو فى الكتابة ٠ وعلى أن أعترف لك بأنى استأنفت الكتابة منذ مجيئك الى هذه الدار ٠ تعرفين ، لست رجلا بسيطا ٠ أحاول أن أجعل من العمى مؤهلا لا عاهة ٠ لذلك أكون أحيانا ظالما ٠ وأقوم بأمور أجازف فيها بنفسى ٠ تتساءلين دون شك عما أكتب ٠ سأجعلك تقرئين يوما ما بعض الصفحات ٠ عالمى ، فى معظمه داخلى ٠ أؤثثه بمبتكراتى الخاصة ، فأنا مضطر للجوء الى ما يقطن غرفتى السوداء ٠ ولو أخبرتك بكل ما تضمه لاندهشت كثيرا ، ولربما ارتبكت ٠ انها سرى ، اذ لا أحد يدخلها ، حتى أختى ٠ وأنا نفسى يحدث لى أن أخاف مما أعرفه عنها ٠ فأمحو من رؤيتى الأشياء التى تأتى الى وتدفعنى ٠ اننى محاط ببعض الأشياء ،

منها ما أسيطر عليه ، ومنها غير القابل للخضوع . ولهذا أحترس منهما . فعلى أن أعترف لك بأنى مذعور من كل ما هو قاطع . ربما حرصت لهذا السبب على ذبح الدجاجتين بنفسى ذلك اليوم . جرحت نفسى ، لكن الجرح لم يكن قاطعا . تصورى لو أن الموسى أفلتت من يدى ، كانت ستجدع أنفى بالتأكيد أو تقطع أصابعى الخمسة . على كل لا ينبغى أن أفزعك بمخاوفى . هذا سخيف جدا ! انى أغبطك . وبودى لو أكون مكانك . فأنت مراقبة وشاهدة وأحيانا فاعلة . ما يمثل فرصة مناسبة لك هو أن تكونى مدعوة للمشاركة فى حياة دار دون أن تكونى مضطرة لمعرفة شىء أو بتحمل الماضى الذى شكلنا . لهذا لا أسعى بدورى لمعرفة ماضيك . فأنا أعتمد فقط على حدسى وانفعالاتى . ضعى الآن هذه الزهور فى مزهرية .

شكرته وتركته يحاول تدليك جبينه بيده ، بهدف ازالة صداع . فهو عندما كان يشعر بألم فى رأسه ، كان يغدو فى منتهى الهشاشة ويفقد جميع مرتكزاته . عندئذ كان يشعر بعاهته . وبينما كنت أبحث عن مكان أضع فيه المزهرية ، ندت عنه صرخة وأخذ يلوح بيده فى جميع الاتجاهات مستنجدا . أسرعت اليه ، كان مذعورا نتيجة الألم المبرح ولأنه لم يتمكن من العثور على مسكناته ، مع أنها كانت فى متناول يده ، كانت خلفه .

ــ هذا الألم يمنعنى من التنفس ، انه مطرقة تحطم كتلة من الرخام . عند كل ضربة أنتفض ..

ناولته المسكنات مع كوب من الماء ، ووضعت يدى الباردة على جبينه . فى البداية ، لم يطق وجودى ، وبعد ذلك ، عندما أخذت أدلكه شعر بتحسن .

ــ استمرى ، فأنت تخففين عنى ، لك يدان رؤوفتان . ولدت بالصداع النصفى ، وهو يلاحقنى ، انه عاهتى الأساسية .

قدمت له قهوة وساعدته على التمدد فى السرير ، لا كى ينام بل ليرتاح من آثار الأزمة . استبقانى بالامساك بيدى . فلم أسحبها . فقد اعتبرت طبيعيا ترك يدى فى يده . كنت أحس بجسده دافئا . وبقينا على هذه الحال فترة طويلة من المساء . وعندما سمعت صوت المفتاح فى القفل ، نهضت وذهبت لأفتح الباب . كنت قد أغلقته بمزلاج الأمان . فبدت الحارسة مندهشة . وسألتنى عن سبب الاغلاق على نفسى . فقلت لها : « صدفة ! » . فلم تلح . حكيت لها عن أزمة الصداع . أصابها القلق . منعتها من الذهاب لايقاظه . ثم ، عندما توغل الليل قالت لى :

ـ هل تذكرين المرة الأخيرة التى عاد فيها القنصل منفعلا ؟ كان ذلك منذ شهر تقريبا ..

ـ ربما أكثر . لكنى لا أرى علاقة لذلك بأزمة اليوم .

ـ نعم ، معك حق ، لا يمكن أن تعرفى . لكنى أربط بين التعفف وألم الرأس . فعندما يظل الرجل مدة طويلة متعففا ، يصاب الرأس بآلام ، هل تفهمين ؟

ـ بشكل غامض . تقصدين أن الرجل يصاب بصداعات نصفية ؟ والنساء ، الا يصبن بشىء ؟

ـ نعم ، انهن يصرن غضوبات ، ويأخذن فى الصراخ لأتفه الأسباب . لكننى تعودت ، لم أعد حتى أصرخ .

أخذت أضحك بصوت خافت . فابتسمت الحارسة ثم انفجرت مقهقهة . وقد حاولت كتم ضحكتها بوضع يدها على فمها .

(١٣)

بحيرة ماء ثقيل

أمضيت الليل بطوله أقاوم تيارات ماء ثقيل ولزج فى بركة عميقة مسكونة بكل أنــواع الوحوش والنباتات · كانت رائحــة خانقة ، رائحة قوية لا يمكن تحديدها ، تنبعث من ذلك الماء الميت والمضطرب مع ذلك فى الداخل بحركة فئران تلعب بقط جريح ·

ثمة شىء كان ثابتا ومتحركا فى الوقت نفسه ، وكانت لدى امكانية رؤية كل شىء · يد موصدة فى قفص زجاجى ، تنزل بى حتى القاع وتصعد بى حسبما ترى · كنت أختنق ، لكن صرخاتى لم تكن تتعدى القفص · تعرفت على جســد فاطمــة ، ابنة عمى البائسة ، المصابة بالصرع والتى « تزوجتها » حفاظا على المظاهر · كنت أحبها لأنها كانت جرحا مفتوحا لا يتعهده حنان · كان وجهها ساكنا وجسدها كاملا · نائمة فى قاع تلك البركة كشىء مهمل لا يرغب فيه أحد · وعلى نحو غريب ، تتحاشى الفئران قرضها · رأيتها فأطلقت صرخة كانت من الحدة بحيث استيقظت مذعورة وأنا أتصبب عرقا ·

لم تكن المرة الأولى التى أرى فيها كابوسا من ذلك النوع . لكن كان يلوح لى فى كل مرة وجه من ماضى . كان النسيان الكامل مستحيلا . ماذا أفعل حتى لا يعاودنى الاحساس بالذنب ، حتى لا أظل مطاردة بالفئران والعناكب ؟

فكرت فى ألم الرأس وأخذت أضحك . على كل كان لا بد أن أؤدى ضريبة فى هذا المكان أو فى مكان آخر . كان الأمر مفروغ منه . لم أكن أناقش قوانين وأوامر القدر حتى أعجل بالنسيان .

كنت أخرج اذن من كابوس ثقيل ، وكان القنصل يتخلص من الألم الذى كان يحطم رأسه . كنا نخرج معا من المحنة نفسها ، وهو ما ذكرنا بحالنا ككائنين حلت بهما اللعنة . كان ذلك يحررنا ، وقد أحسسنا بنفسينا أكثر حرية طالما قدر لنا أن تلحق بنا أشباح ماضينا من يوم الى آخر .

قررت فى ذلك الصباح ، بينما كان جسدى متعبا ، أن أتقدم خطوة أخرى للاقتراب من القنصل أكثر . فعندما كان يغادر الدار الى كتابه القرآنى ، طلبت منه الا يتأخر . ففوجىء وقال :

– كأنك أختى ! ارضاء لك سأعود مبكرا . لن أذهب الى المقهى ، ولا الى صديقى الحلاق .

كنت أريد مرافقته ، دون أن تعرف الحارسة شيئا من هذا . سيكون هو دليلى . لقد راقتنى تلك الفكرة الغريبة ، وأحببت جرأتها . كنت فضولية وأحسست بجسدى خفيفا ، بعيدا ، محفوظا الى الأبد من جاذبية الماء الراكد فى تلك الليلة . جعلنى ذلك الشعور بالمرح أحس بقشعريرة ، فأخذت أقفز فى الدار ، وأنا أنظف ، كالمجنونة . وبعد ذلك أمضيت فترة طويلة فى حمام الدار ، فاغتسلت وتعطرت كما لو كنت فى عرس .

عاد القنصل فى حوالى الساعة الخامسة ، وأحضر معه باقة نعناع وبعض الحلوى . فقلت له اننا سنترك هذه الأشياء لما بعد ، وأن الحارسة كلفتنى بمرافقته . توقف فترة ، مفاجأ بالأمر ، وابتلع ريقه ثم شرب كوبا من الماء وسألنى ان كانت أخته قد كلفتنى حقا بمهمة من هذا النوع . كان شكاكا :

ـ لكن ذلك يضايقنى كثيرا . انها مسألة بين أختى وبينى . مستحيل .

ولاحظت وهو يتكلم أن وجهه بدأ يتهلل من فكرة الخروج :

ـ هل ترضين حقا بمرافقتى ؟ الا يضايقك هذا ؟

ـ كلا ! على الاطلاق . أنا فضولية ، وأنت تتيح لى فرصة التواجد فى مكان لم أكن لأدخله أبدا .

ـ بما أنك تأخذين الأمر على هذا النحو ، لم يعد أمامى سوى أن أتبعك .

ثم بعد فترة صمت قال :

ـ كلا ، ستتبعينى .

ـ واذا أمسكت بذراعك ، ستقول لى كيف أتوجه .

كنت أسير فى الطريق لأول مرة ممسكة بذراع رجل . كنا نشكل فى الظاهر زوجا عاديا ، رجل وامرأة يسيران فى الشارع . ليس فى هذا أى شىء غير طبيعى . ربما لو راقبتنا عين سيئة النوايا وعلمت بوجهتنا لآذتنا ولعنتنا الى آخر الدهر . وقد كانت هناك تلك العين ، خلف باب منفرج .

امرأة ترى دون أن يراها أحد . فعند مرورنا بالقرب منها ، تلقيت ما يشبه السهم وأحسست بقشعريرة . تم ارسال شحنة من الشؤم التقطها جسدى ، دليلا للاستشعار . فآثرت الاستخفاف

بهـا ، وواصـلت طريقى • مررنا أمام دار شهيرة ، فهى تعرف بسهولة • طلب منى القنصل ألا أتوقف • كنت أتبعه • فقادنى الى درب مظلم وتوغلنا عبر باب قصير فى رواق بلا ضوء • كنا محاطين لأول مرة بنفس القدر من العتمة •

ـ لا تخافى ، توجد درجة •

شددت على ذراعه لدرجة ايلامه • ثم صعدنا السلم ووصلنا الى باب مغلق • طرق القنصل مرتين وثلاثة • فتحت لنا امرأة رحبت بالقنصل :

ـ لم نرك منذ وقت طويل ! صارت لك الآن مرافقة جديدة ؟

ـ أعدى لنا الشاى ، من فضلك ، ولا تضعى كثيرا من السكر •

أنزلتنا فى غرفة قذرة بها مغسل غير نظيف • كان الصنبور يسيل • وفى طرفها دولاب قديم تنبعث منه رائحة النفتالين • جلست على مقعد • أما القنصل فقد تمدد براحته على السرير • ثم أخرج من جيبه سبسيا كان قد حشاه بالكيف وأشعله • دخن وحده • ظللنا صامتين ننتظر الشاى • كنت أفتح عينى عن آخرهما لأرى كل شىء • وكنت فى لهفة • حملت الينا ، صـبية صغيرة لا تتجاوز السنوات العشر ، صينية عليهـا براد وكئوس ، ثم اختفت دون أن تقول شيئا •

وبينما كنا منهمكين فى شرب الشاى المحلى بكثير من السكر ، دخلت المرأة تتبعها امرأتان بين عشرين وخمس وعشرين عاما • ليستا جميلتين ولا هما بدميمتين ، لكن كان واضحا عدم رغبتهما البقاء مع القنصل • وطلبت منى المرأة أن أصفهما له :

ـ احداهما ، سمراء موشومة الجبين والذقن ، شعرها المدهون بالزيت ملموم فى وشاح فاقع اللون • الصدر ناهض ولكنه مترهل • بطنة ، سمينة جدا ، تنظر اليك مقطبة الوجه • باختصار ليست

جميلة ولا دميمة . وتقوم بعملها بدون بهجة أو مرح . الثانيـة هيفاء ، ثدياها جميلان ، وقامتها مشيقة لكن ردفيها هائلان . شعرها أسود وعيناها صافيتان . لك الخيار .

عادت المرأة التي كانت قد ذهبت :

– أيهما ستبقى ؟

أجاب القنصل على السرير :

– لا واحدة .

لما غادرت النساء الثلاث الحجرة ، مد لى القنصل يده القابضة على مبلغ من المال :

– نسيت أن أترك المال لتسددى الحساب .

كان مبلغا لا يستهان به . انتظرنا قليلا وما لبثت أن دخلت شابة جميلة ، مذعورة ، كما لو أنها دفعت من الجهة الأخرى للباب من قبل المرأة . نظرت الينا ببلادة ، غير متبينة ما ينتظره منها ذلك الرجل وتلك المرأة . ولاحظت أنها كانت ترتجف ، فلا بد أنها جديدة . عادت المرأة للظهور ، سعيدة فيما يبدو باختيارها . ومدت لى يدها ، فناولتها المال . كانت على وشك الانصراف عندما شرعت فى وصف الشابة ، شبه الشقراء ، التى كان لها ثديان كبيران وراسخان : .

– هيفاء جدا ، سمراء ، ونهداها صـغيران جدا . مشيقة القوام ، قصيرة الشعر ، متوازنة الردفين ، لحيمة الشفتين . وهى راغبة .

أشرت بيدى للمرأة والشـابة بالانصراف وانتظرت جـواب القنصل :

ـ تقولين بأنها صغيرة النهدين متـــوازنة الردفين ؟ اذن أنا أنتظرها ٠

تم كل شيء في صمت ٠ كان من الضرورى الا ينتبه للخدعة٠ طرقت الباب ٠

ـ لا تدخلي الآن ٠

نهض على مهل ٠ كنت لابدة في أحد الأركان ٠ وكنت أعرف أنه ليس مغفلا ، لكنني آثرت أن أترك الشك يحوم حول ما حدث ذلك المساء ٠ كان ثمة تواطؤ يربطنا في الصمت والسر ٠ وكان ينبغي الا أتكلم ، الا أحمل الكلمات أكذوبة ظاهرية لم تكن في الواقع سوى حقيقة لا ينبغي تسميتها ٠

ما أن أغمضت عيني في تلك الليلة حتى رأيت من جديد بركة الماء الثقيل ٠ لم يعد بها قفص ٠ كنت أغطس فيها بنفسي وأصعد دون معاناة ٠ وعلى نحو ظاهر ، كان المحيط هو نفســـه محيط الليلة السابقة ـ كان عبارة عن حديقة عامة مهجـــورة بعشبها الأحمر وأشجارها الجرداء ٠ وكانت توجد أرجوحة مربوطة في غصن تينة كبيرة ٠ كانت مكسورة ومدلاة كشيء بال ٠ ودون أن أنتبه ، رفعت يدى الى جبيني وأخذت أبحث عن ندبة ٠ كانت مختفية تحت الشعر ٠ كنت أرتاد تلك الحديقة العامة مع أبى وأنا أرتدى ملابس صبي ٠ كنت أضايق الصبيات حول تلك الأرجوحة، حتى اليوم الذى أوقعني شقيق احداهن ٠ كان وجهي ملطخا بالدم ، وكنت أبكي ٠ قال لى ذلك الشقيق الذى كان يكبرني ، قبل أن يلوذ بالفرار : « لو كنت بنتا ، لكان لى معك أمر آخر ! » أسرع أبى مذعورا وحملني الى المستشفى ٠ كنت قد نسيت تماما تلك الذكرى ولم أعد أذكر الظروف التي ترجع اليها الندبة ٠

واختتم حلمى بهبوب زوبعة عنيفة أثارت الاوراق اليابسة وطوحت الأرجوحة الشهيرة التى لم تعد تصلح لشىء نحو أماكن أخرى ، كان وجودها الموحش يحيى ذكريات بعيدة ٠

فى الصباح ، لم أجد فى نفسى الشجاعة والقوة للظهور أمام القنصل ٠ كان هو الذى يطرق بابى ويعبر لى عن صداقته الرقيقة بتقديمه لى كوبا من عصير البرتقال كان قد أعده بنفسه ٠ احمررت وأحسست بفورة من الحرارة تتصاعد بداخلى جعلتنى خرقاء٠جلس على طرف السرير ، وأخرج منديلا مطرزا وقدمه لى ٠ فتلامســـت أصابعنا ٠ شكرته ٠ فلم يقل شـــيئا ٠ أحسست فى أعمـــاقى بديهيا وبشكل طبيعى ، أن للرجل فضيلة خاصة ، نوعا من الرقة التى امتنعت عن الظهور بسبب تحكم الحارسة الفظ والذى كانت تمارسه معه ويغلب عليه تفاديا للمأساة الكبرى ٠

لم يكن فى حاجة للكلام ٠ فقد كانت نظرته الزائغة تبلبلنى ٠ كان يتمتع أحيانا برقة قلقة ، شىء ما يجىء من حيوانية خالصة ٠ جو حميم صامت ملأ تلك الغرفة المعتادة على العزلة ٠ كنا نسمع جلبة المارة ، ولا نجرؤ على النطق بكلمة واحدة ٠ قربت يدى من يده بتمهل ثم سحبتها ٠ كنت أخشى تحطيم شىء ما هش ، ليس بمقدورى أن أسميه أو أنساه ٠ كنت أحس بأننا انزوينا عـلى نحو ارادى فى أحد الأقبية ، واننا كنا سرا ينبغى كتمانه ٠ توجد لحظات مكثفة يكفى فيها التواجد ، ولا يعرف المرء لماذا يحدث شىء قوى وحاسم أحيانا ، شىء لا يمكن تسميته ويكشفه الانفعال وحده ، لأسباب غامضة ، فيجد المرء نفسه ثملا وسعيدا كطفل تنقله البهجة الى عالم عجيب ٠ لم اكن من ناحيتى ، أفكر يوما فى الوصول الى تلك الحالة التى كان يطفو فيها الجسد والمشاعر ويحملانى نحو

ذرى من الهواء النقى . لقد هبت ريح منحدرة من جبل عال على أفكارى . ولم يعد يلتبس شيء . كنت فى سلام مع نفسى ، وربما لم يسبق لى أن عرفت ذلك من قبل على الاطلاق .

نهض القنصل وكنت أرغب فى استبقائه والاحتفاظ به الى جوارى ، ولكننى لم أتحرك ، مخافة افساد كل شيء . خرج من الغرفة دون أن يتفوه بكلمة واحدة . لم أفكر فى شيء خلال اللحظات الصامتة التى قضيتها فى حضوره . لم أرد أن أتخيل رد فعل الحارسة ولا الجو الجديد الذى يوشك أن يسود الدار . كان الوقت لا يزال مبكرا جدا .

كانت الحارسة نائمة . وكان القنصل قد خرج . فلم أعرف ماذا أفعل فى ذلك الصباح كنت أدور فى حلقة ، وقد قررت الا أغادر الغرفة .

(١٤)

مهزلة البيت السرى

لعبنا معا ، خلال فترة من الزمن ، مهزلة البيت السرى ، رغبه فى اخراج مكنون الصمت والخفاء أكثر من خشية اثارة شكوك الحارسة • وخلال أيام قليلة ، تقلص دورها ومكانها فى الدار • كانت تتحمل دون أن تقوم برد فعل ، لكنى كنت أعتقد أنهـا لن تسمح باستبعادها كلية من الصورة • فى تلك الفترة كانت تعمل كثيرا • كانت بالاضافة الى الحمام تكرس وقتهـا لترتيب بعض الزيجات •

توجهت ذات ليلة الى وهى عائدة متأخرة كما لو أنى طلبت منها خدمة أو معلومة :

– تم الأمر ! لدى ما يلزمك !

– بماذا يتعلق الأمر ؟

– نهايته ، لا تتجاهلى ، يتعلق بالذى تفكرين فيـه طوال الوقت ويؤرقك •

ـ هناك كثير من الأمور تمنع النوم ٠٠

ـ أجل ، لكن هذا الأمر يتآكلك ، مثل دودة تتنقل تحت الجلد ولا يمكن للمرء أن يمسك بها لكي يحك نفسه فى النهاية انه يسبب التآكل ٠٠

فهمت بالطبع ، لكنى كنت أسعى الى اثارة سوقيتها ، وهـو ما كان يجعلها تفقد السيطرة على أعصابها ٠ خاصة أن القنصل لم يعد يشك فى أن أخته أصبحت خاطبة فى حدود اللياقة ٠ كنت أمعن فى ذلك ٠

ـ طيب ، بما انك تسخرين منى ـ سأكشف لعبتك ٠ عثرت لك على رجل ٠ أرمل لكنه ركين ٠ كان يبحث عن يتيمة ، عن امرأة بلا روابط ٠ امرأة وحيدة فى العالم ٠٠ انها حالتك تقريبا ، أليس كذلك ؟

كان القنصل ينصت لتلك الملاسنة دون أى رد فعل ٠

ـ لست للزواج ٠ لم أطلب منك شيئا ٠

ـ صحيح ، لم تطلبى منى أى شىء ٠ لكن أنا التى أقرر فى هذه الدار من عليها أن تتزوج ومن عليها أن تبقى عازبة ٠

كانت قد رفعت صوتها وصارت فجأة متسلطة وشرسـة ، وكان وجه الأخ منقبضا ٠ اندفعت نحوى وجذبتنى بعنف حتى المطبخ حيث حبستنى ٠ كانت فى ذروة نوبتها وكانت تحاول اثارة القنصل ضدى ٠ كنت خائفة حقا لأنها كانت تعرف بعض الاشياء عن ماضى ٠ فلابد أن أحدا حكى لها ٠ كانت تخفض صوتها عندما كانت تتوجه لأخيها ٠ ألصقت أذنى بالباب فتمكنت من التقـاط بعض العبارات :

ـ غاضبة ، أكذوبة ، انها خطر · كذبت علينـــا · ولدى الدليل · هى أقوى مما تعتقد · هذه المرأة تحمل بداخلها حياة خدعت بها الجميع · يبدو أنها قتلت أبويها · فقد ماتت أمهـــا مجنونة ولم يتمكن أبوها حتى من أن يمرض · نحن ناوى فى هذه الدار قاتلة ، لصــة ، هل تعرف أنها فرت بميراث العائلة كله ؟ على كل ينبغى أن تصدقنى ، يا أخى ، يا حياتى ، ونور عينى ··

ـ كفى ! لا أصدقك ـ أنت غيورة ، وحمقاء ، وقد اختلقت هذه القصة لتلقى بى مرة أخرى فى العزلة والعبودية · لن تنطلى على الخدعة ·

بعد أن دفعها القنصل الذى كان ينوى حبس نفسه فى غرفته صرخت بكل قواها :

ـ هذه المرأة رجل ! عندى الدليل ، وصور وأوراق ـ لقــد خدعتنا ··

أطلق القنصل ضحكة متواصلة وعصبية · بينما واصــلت الحارسة الصراخ · ثم سمعتها تتوسل :

ـ كلا ، يا أخى ، ليس هذا ، كـلا ، انت تخيفنى ، ليس الموسى ، ستؤذى نفسك ، كلا ، أرجوك ·· كلا ، ليس صحيحا ·· لقد اختلقت كل شىء · أنت تعلم كم أحبك · وكم أنا شقية · اننى أسحب كل ما قلته ·

ـ افتحى باب المطبخ اذن ··

ـ حالا ·

رأيت القنصل ، ممسكا بموسى الحلاقة أسفل عنقه ، مهددا ، خانقا ، جموحا · فأمسكت بيــده وذهبت بــه الى غرفته · كان

يرتجف ويتصبب عرقا . أخذت الموسى من يده وجلست الى جواره .

- عيني جافتان ، لكني أبكي بغزارة في أعماقي . أبكي لأن أختي حمقاء . أبكي لأني على وشك فقدانك . وأنا لن أتحمل غيابك . لا أعرف اسمك . وقد ناديتك منذ اليوم الأول بالمدعوة، وكان بامكاني أن أمنحك اسما ، لكن ماذا يهم الاسم وصلة القرابة وجودك في دار المجاذيب هذه أضاف شيئا من الحياة ، وبعض الأحاسيس والدفء والرقة ..

كانت الحارسة قد انصرفت . فانتهزت تلك اللحظة من الأزمة واعترفت له بكل شيء . حكيت له قصتي منذ الولادة حتى الهروب ، والتسكع والاغتصاب ، واللقاء بالحارسة . أخبرته بحسرتي وأساي ، والأمل الذي اكتشفته من جديد بفضل صداقته المخزونة الرقيقة . وقلت له عن مدى علمي بأنه سيعثر على يوما وسأعاقب ، وأنني أنتظر هذا اليوم بحرص ، لكنني أنا أيضا لن أطيق البعد عنه .

قصتي جعلته يبتسم . كانت بالنسبة له حكاية ابتكرتها لعبور السنوات العشرين الأولى من الحياة ، قصة ابتدعها خيال طفل عاني الضجر ففضل الاندماج في لعبة بين الجد والهزل .

وبينما كنا لا نزال تحت تأثير نوبة الحارسة أضاف قائلا :

- الضحك أمر هام ، يدمر حائط الخوف ، والحساسية المفرطة والتعصب .

كانت له مقدرة عظيمة على التغيب عندما كان يجد أن وضعا ما ثقيل وطي ...

ـ لست بحاجة الى اغماض عيني : فأنا أبقى هنا ، بينما يكون ذهنى فوق ، فى الغرفه ، أو السطح · أحب أن أضحك عندما لا يكون شيء على ما يرام لأن لا شيء واضح حقا ، ولا شيء غامض على الاطلاق · أود أن أقول بأن كل شيء معقد ، وان الحقيقة أقرب الى الظل منها الى الشجرة الظليلة · اذا كان ما حكيته لى قد حدث حقا ، فلابد أنك تسليت اذن كثيرا · ولن أقول بأن الأمر كان مماثلا لاهلك ومحيطك · اللعب بهذا الحذق على وجهين يعد حظا · العمى ليس عاهة ، كما قلت لك ذات مرة ، طبعا هو عاهة ، لكنه لا يكون كذلك بالنسبة لمن يعرف اللعب به · اللعب ليس معناه الخداع ، بل الكشف عن فضائل ما هو معتم ، مثله فى ذلك مثل الذكاء لم أعد أذكر من الذى عرفه على أنه فهم للعالم · وهذا يقودنا الى شعرائنا الصوفيين الذين كانوا يعتبرون كل ما هو ظاهر قناع أكثر انحرافا للحقيقة · وبما أنك قد عشت ذلك فى جسدك ، فانك تعلمين بأن النور خدعة · ماذا هناك من واضح ومحدد فى العلاقات بين كائنين ؟ يبدو لى أن لحظة سهو وجدت فى حياتك ، وأنها طالت ، ملت اليها واستمتعت بها وأخذت تلعبين لمحو الآثار وتحدى النظرات ·

لمس يدى بعد فترة صمت · لم أبذل جهدا فى الاقتراب منه· كنت لا أزال أفكر فيما قال · « لحظة سهو » ، هكذا كانت حياتى ، خيال ظل حياتى · كنت مقتنعة بأنى لو التقيت بهذا الرجل خلال حياتى كولد متنكر ، لاما أحببته أو كرهته ، لأنه كان سيكشفنى على الفور · كنت أهتم بالظاهر لكن العمق كان سليما · حقا ، ان هذا الرجل غير المبصر كان يرى بكل حواسه الأخرى · ومن المستحيل الكذب عليه · فلا أحد يكذب على أعمى · من الممكن أن نحكى له قصصا مختلفة ، ولكنه يثق فى الصوت أكثر مما يثق فى العبارات التى ينطق بها المرء ·

وعلى الرغم من أنه كان يتظاهر بعدم تصديق قصتى ، الا أن ابتسامته بينت ارتيابه فى أمر ما · أمسك بيدى ، ورفعها الى شفتيه وقبلها وهو يعضعضها نوعا · فندت عنى صرخة قصيرة فقال لى برنة حالم :

ــ خطيئتنا التى تأكل النفس وتفسدها ، وتنتزع منها فى كل مرة بعضا من نقائها ، هى رفضنا للعزلة · لكن ما العمل ، اننا على استعداد كبير للعطب ·· قد نكون ، انت وأنا ، تعلمنا بحكم قدرنا الفريد ، أن نكون فيما وراء هذه الهشاشة على كل هذا ما أحسست به فور ولوجك الى هذه الدار · قوتنا تكمن فى أننا غير مدينين لأحد بشىء ، وقدرتنا على مغادرة هذا العالم فى أية لحظة ، بغير ندم أو مأساة · لقد قضيت حياتى كلها وأنا أتعود على فكرة الرحيل الارادى · فأنا أحمل موتى بداخلى · فى عروقى والبقية ، نوع من الهياج كى لا نخيب الزمن · لا ينبغى السماح للزمن بأن يسأم معنا · والا كنا نرتكب حماقات ، ونقوم بأمور لا تليق بذكائنا · اقول « نحن » ، لأننا متشابهان ، ولأن ميثاقا مختوما بالسر يجمع بيننا ·

كنت أفكر من جديد · فى المشهد الذى كان القنصل يهدد فيه بذبح نفسه اذا لم تفتح لى الحارسة · ولم أقدر على الامتناع عن سؤاله اذا كان جادا فى ذلك · فادعى بأنه لا يعرف وأن الجدية على كل حال ليست سوى شكل حاد من اللعب · ربما كان صادقا· فقد اعترف لى بأن أخته تخيفه أحيانا وقدم لى صورة عنها لا يمكن التسامح معها بعدها :

ــ مجنونة بعض الشىء ، لأنها تعسة · كانت شجاعة عندما وجدنا أننا ــ بين عشية وضحاها ــ معدمين ، بغير أهل ولا دار ولا ملاذ · كنا وسط الخرائب · فالمدينة كانت قد زلزلت وانزلقت نحو أفق أحمر · وقد احتفظت من تلك الفترة بثورة داخلية لم

يتمكن أى شىء من تهدئتها أو اخمادها • لهذا صارت خشنة • وبامكانها أن تكون شريرة ، جائرة ، وبامكانها تخريب كل شىء بدون وعى فيما يبدو • ولا يجعلها تتراجع سوى عنف أقوى من عنفها • وهكذا أجد نفسى مدفوعا الى العنف • ليس ضدها ، بل ضد نفسى ، وبهذا أصيبها فى صميم كيانها • وهى تعلم بأننى قادر على تنفيذ تهديداتى • ان ما آخذه عليهـا أكثر هـو قلة الكرم واستعدادها المبالغ فيه للكراهية والخبث • أعلم أننى أسيرها . وأنى أعانى من هذا وآمل فى التخلص منه ذات يوم • تصورى ، أنى نجحت فى التحرر من عراقيل العمى ولكنى فشلت فى التخلص من الحنان الذى تكنه لى أختى !

بينما كان يتكلم ، التصقت به ••

وبعدها ظللنا صامتين • كنت أعاود التفكير فى تهـديدات ودسائس الحارسة • فهى قادرة على القيام بعمل شؤم كتدميرنا ، أو على الأقل القضاء على سمعتى • فعندما كانت تصرخ فى ذلك الصباح كان يسيل فى شفتيها لعاب • انه الدليـــل الخـارجى للكراهية • لم تعد عيناها محمرتين ، بل كانتا مصفرتين • كانت ثورتها ثورة حيوان جريح يرفض الموت بمفرده • ولابد أن بعض القرائن أو المعلومات حول ماضى الشخصى كانت تحت يديها • وعلى الرغم من عدم وجود ما آخذه على نفسى حول تلك الفترة من حياتى فقد كنت أريد أن أتحاشى مواجهة ذلك الرياء فى يوم من الأيام • عند دفنى لأبى ، حرصت على أن أدفن معه كل الأشـــياء التى استخدمتها خلال تلك الفترة • وبناء عليه لم يعد باستطاعتها أن تشهد • كان لا يزال يوجد الاعمام والاخوات وأبناء الخال والجيران وقـد هربت لأمحـو الآثار وتوقفت فى الطرف الآخر للبـلاد • وشاءت الصدفة ألا يطول تسكعى • قاد القـدر خطواتى نحـــو الحمام • وكان الاغتصاب فى الغابة هـــو الذى دفعنى الى ذلك

المكان • كنت أعلم أني لن أستطيع العيش ، في المرحلة الأولى ، الا مع شخصيات فريدة • وكنت سعيدة بأن يكون أول رجل يحبني هو رجل أعمى ، كانت عيناه في أنامله ، وكانت مداعباته المتمهلة الرفيقة تعيد تركيب صورتي • انتصاري كان في هذا ، فقد كنت مدينة به للقنصل الذي كانت رقته تعبر عن نفسها باللمس خاصة • لقد رد لكل حواسي حيويتها التي كانت هاجعة أو معاقة • بل كان يمدها بكثافة نادرة ترضيني بعد ذلك على نحو رائع • كان كل شيء يتم في الصمت والضوء الخافت • كان حريصا جدا على الضوء • فقد كان يحدث له أحيانا أن يكون أخرق فيغضب لذلك • عندما كان يطلب مني أن أوقد لمبة أخرى أو شمعة • وكان يقول لي : أنا بحاجة لقليل من الضوء لكي أراك ، لكي أشم عطرك » • فمن المرجح أن تجربته مع النساء كانت محدودة ، اذ كان يدأب على التركيز مثل فنان قبل الشروع في عمل ما • وكان يقارن نفسه بنحات فيقول لي كذلك : « لكي تكوني أليفة لدي ، متخلية عن التمرد ، فأنا أراك بعناية وصبر » •

كنت قد قضيت كل مراهقتي وأنا أصد الشهوة بكل قواي كنت مخدوعة • لكني كنت أجني من ذلك الوضع كثيرا من الفائدة • وقد انتهى بي الأمر الى عدم التفكير في الشهوة بتاتا • لم تكن من حقي • كنت اكتفي بأحلامي الهذيانية ، المأهولة بالرجال والفتيان الوجهاء والمآدب • كل ذلك كان بعيدا في الوقت الحاضر ، ولم أكن أريد معاودة التفكير فيه • كانت المعجزة في وجه القنصل وعينيه • فقد نحتني في تمثال من اللحم ، ويحب ويحب • لم أعد كائنا من الرمل والغبار مضطربا هوية ، يتفتت عند أقل هبة ريح • كنت أحس بجسدي يتقوى • فلم أعد ذلك الكائن من الريح الذي لم يكن كل جلده سوى قناع ، وهم معد لخداع مجتمع بلا حياء ، مجتمع قائم على النفاق وأساطير ديانة حول اتجاهها

وأفرغت من روحانيتها ، وخدعة من صنع أب مهووس بالعار الذى يحركه المحيط · كان يلزمنى النسيان ، والتسكع ، والنعمة التى سكبها الحب لكى أولد ثانية وأعيش · وللأسف ، لم يكن مقدرا لهذه السعادة وهذا الاكتمال وهذا الاكتشاف للذات فى النظرة الجليلة لأحـــد العميان أن يدوم · كنت أعـــرف ذلك · كنت أستشعره ـ لقد كانت تلك السعادة القصيرة والكثيفة معا عـلى وشك التعرض لانقطاع شرس · وعلى الرغم من أننى كنت تعسة، فقد كنت أقبل بالقدر · لم أكن قدرية ، لكن لم تعد لدى القدرة على التمرد ·

(١٥)

القتل

بمنتهى السرعة تم كل شيء · اختفت الحارسة طوال اكثر من أسبوع · اعتقد القنصل أنها مشغولة بزيجاتها · أما أنا فكنت مقتنعة بأنها على سفر تبحث أمرا ما · وقبل أن تذهب ، أرسلت الينا خادمة الحمام تخبرنا بأنها مشغولة كثيرا فى الآونة الأخيرة ولا داعى للقلق ·

وذات صباح عادت فى ساعة مبكرة · كنت مستغرقة فى نوم عميق الى جوار القنصل · فتحت الباب وجذبتنى من شعرى · استيقظ القنصل مذعورا مذهولا ، معتقدا أنه فى كابوس · كانت تهذى وتردد :

ـ تعالى يا نسل الكلاب ، يا لصة ، يا قبيحة ، تعالى لترى من الذى ينتظرك بأسفل ، قتلت الجميع وهربت بالميراث ··

كانت تدفعنى وهى تركلنى · وكنت أتشبث بأى شيء أطوله كان القنصل يرتدى ملابسه · القت بى فى السلم · فسقطت ووجدتنى وجها لوجه مع عمى ، والد فاطمة ، البخيل الذى حذرنى

منه أبى · كان غضبه عظيما · وكان ينظر فى شحوب لا ينبىء بخير · كنت أعلم أنه رهيب ، وأن ابنته كانت بسبب شراسته مهملة ومصروعة · كان أبى يدعوه « أخى الحقد » · فهو الذى كان يستهزىء بأمى ، العاجزة عن انجاب ولد · كان يفعل هـذا ببرود وصـلافة · كان المخاط النـازل من أنفه سـما · ولقد كرهته دائما · كنت أقوى منه لأنى لم أكن أتيح له أبدا فرصة للاقتراب منى أو اقامة أدنى علاقة معى · فقد كنت أعرفه مشحونا بكراهية لا حدود لها · واذا كنت قد تظاهرت بالزواج من فاطمة فذلك لانقاذها بشكل خاص من عائلتها التى كانت تتركها تهتز بمفردها خلال نوباتها · لقد قضى حياته كلها فى اظهار الحسـد لشقيقه ، والسعى الى الحاق الضرر بالجميع · كان هواه الأعظم يتمثل فى نصب الشراك للناس ، وابتزازهم بالتهديد ، والاستفادة من ضعفهم أو شقائهم · كان جيفة · وعندما رأيته ، فهمت أنـه أوقعنى فى الشرك · كان صامتا يتلذذ بانتصاره · كان بامكانى أن أنكر كل شىء ولا أعترف به ، لكن صورة بركة ماء ثقيل ولزج اكتسحتنى ، فسببت لى الغثيان وجعلتنى أفقد رباطة جأشى · تلاقت نظرتانا بتركيز · كان الحقد وشهوة الانتقام يسـتقران فى نظرته · وفى نظرتى كانت الشفقة ورغبة كبيرة فى انهاء الأمر · طلبت منه أن ينتظرنى ، حتى أذهب لأخذ حاجاتى وأتبعه · صعدت الى غرفة القنصل ، الذى بدا مذهولا ، يائسا ، فاقدا القدرة على رد فعل · وتوجهت مباشرة الى الدرج الأسفل · حشوت المسدس ونزلت دون تعجل · فلما لم يعد يفصلنى عن العم سـوى متر واحد ، أفرغت كل الطلقات فى بطنه ·

فى غمضة عين ، علمت بأن نهاية الحلقة قد دنت · وكان على أن أختمها وأمهرها بهذا القتل · فعندما يطلق أحد النار ، لا يفكر فى شىء بصفة عامة · أما أنا فقد اكتسحتنى حشود من الصور

والأفكار . كنت مأخوذة بمدها وكنت أعلم أن يدى قد تحركتا بطاقة فاطمة ثم بطاقة أبى وأمى وكل الذين كانوا ضحية خبث هذا الرجل .

عندما رأيت الدم بلون أصفر ضارب الى الخضرة وهو يسيل من ذلك الجسد الممدد على الأرض ، شعرت بالارتيـــاح . كانت الحارسة تولول وهى تخدش وجنتيها . أما القنصل الذى كان أسير صمته ، فكان يبدو عليه الغياب . أحسست بالبرد . فوضعت وشاحا على كتفى وانتظرت بقية الأحداث . كنت أمعن النظر الى الأرض ولم أعد أسمع شيئا كنت قد غدوت بعيدة ، أركض فى أحد المروج متبوعة بحشد من الأطفـــال الذين كانوا يقذفوننى بالحجارة . كنت فى سن السعادة ، أكاد أبلغ عاما . ولم تعـــد مقولة الخسارة موجودة لدى . كنت قد عشت فى بضعة أشهر عاطفة قادرة على اشباعى حتى نهاية أيامى .

مثلت أمام القضاء وتم الحكم على بخمس عشرة سنة سجنا . لم أكن أرغب فى محام . فعينت لى المحكمة محاميا . كانت محامية امرأة شابة قامت بمرافعة رائعة حول وضع المرأة فى بلد مسلم . وقد تم الاستماع الى كل من الحارسة والقنصل كشاهدين . لم أعد أذكر ما قالته الحارسة ، أما القنصل ، فعلى الرغم من أنه ابتلى بهذه القضية ، الا أنه لم يظهر ذلك على الاطلاق وقدم تصريحا كان قد أعده :

ــ من يسع دائما الى احراج الانســان لا يمــكن أن يحظى بتقديرنا . والذى لا يمنع فصيحة أحد ليس انسانا . وعنــدما يكون المرء مالكا للفضل وحائزا على رفعة فى النفس ، يصــــير قاسيا ، أى منصفا . ان المرأة التى تحاكمون اليوم هى من هؤلاء

الأشخاص الاستثنائيين الذين صمدوا فى وجه كل الفضائح التى فرضها الحقد . لقد استقبلت ألمها الأكبر ، وهذا ما أملته عليها رفعة نفسها . اننى مرتبط مع هذه المرأة بميثاق ، وهو سرنا . وهنا حبنا . لم تجر العادة على سماع الحديث عن الحب فى هذا الحرم . فاعلموا هذا : هذا الحب الذى يربطنا يبعد عنى العتمات. لذلك فأنا سأنتظرها .

(١٦)

فى العتمات

في السجن ، سرعان ما انتظمت حياتي · لم أعتبر الحبس عقابا · فبعد أن وجدت نفسي بين أربعة جدران ، تبينت كم كانت حياتي كرجل متنكر تشبه السجن · كنت محرومة من الحرية في الحدود التي لم يكن فيها من حقي الا دور واحد · خارج هذه الحدود تكون الكارثة · لم أنتبه في الحال كم كنت أتألم · فقد تم تحويل مسار قدري ، وتمت عرقلة غرائزي ، كما تم تغيير جسدي ، وانكار نشاطي الجنسي ، والقضاء على آمالي · فهل كان لي الخيار في ذلك ؟ ·

السجن مكان يتظاهر فيه المرء بالحياة · انه حظ · ولونه لون الغياب ، لون نهار طويل لا ضوء فيه · قماش ، كفن ضيق ، وجه محروق ، هجرته الحياة ·

كانت زنزانتي ضيقة وقد أخذت بها · أردت أن أقول لكم بأنها كانت تجسد القبر ، فكنت أعتبر تلك الاقامة جزءا من الاستعداد للرحيل الأكبر · لم تكن رطوبة الجدران تطولني ·كنت سعيدة بالحصول مؤخرا على حيز مواز لجسدي ، وأنا أحافظ على

الحد الأدنى الممكن من العلاقة بالسجينات الأخريات · كنت أرفض الخروج للنزهة · كما طلبت ورقا وقلما · كنت أريد أن أكتب · أحسست بأن الكلمات تجتذبنى من كل جانب · كانت تفد بكثرة، محتشدة ، لكى ترتطم بالحاجز القفصى البارد · كلمات ، روائح ، صـــور ، وأصـــوات تطوف حـــول أسرى · فى الفترة الأولى ، لم أنشغل بها ، فقد كنت أتعلم الانتظار · لم أكن أريد حساب الزمن· لذلك أزلت الضوء الخافت الذى كان يتدفق من فتحة بأعلى الجدار· فما جدوى الايهام بالنهار وضيائه بينما المكان كله غارق فى ليل دامس ، طويل وعميق · كنت أطلب العتمة وانتهيت بالحصول عليها · وكنت أفضل العيش فى مســـاحة من اللون نفســه ، والاعتياد على تلك القطعة المسطحة من الأرض ، وذلك الخـــط المستقيم الذى كنت أسير عليه · كنت أمرق تدريجيا الى العـــالم اليومى للمحرومين من البصر مثلما كنت محرومة من الحـــرية ·

فكنت أعيش مغمضة العينين · أعترف أنى عانيت لكى أعتاد · وعصبت عينى لمزيد من التأكد · فلم يكن فى هذا المكان القـذر شىء يمكن أن يرى ، ولكنهـــا كانت طريقتى فى أن أكون قريبة من القنصل · كنت أحاول الولوج فى عتماته ، آملة أن التقى به ، وألمسه وأكلمه · كان يزورنى كل يوم جمعة ، عند الظهيرة ·فكانت حياتى ترقم بتلك الزيارات الاسبوعية · فى البداية ، كان ذلك يضحك بعض الغبيات اللائى كن يتهكمن على « الأعمى الذى يأتى ليراها ، نعم ليراها ·· » ولم أكن أرد أبدا على تلك السخريات · فى الفترة الاولى ــ ولم أكن قد أغمضت عينى بعد ــ كان كل منـــا ينظر الى الآخر ولم نكن نقول أى شىء · كنا نبقى ، طوال وقت الزيارة ، يدا فى يد دون أن نتفوه بكلمة · كان يحمل الى كتبا ، ودفاتر ، وأوراقا وأقلاما · لكن حينما عصبت عينى ، حكمت على نفسى بعدم الكتابة · وفى الوقت نفسه ، كانت الرغبة فى الكتابة

تتعاظم بداخلي . كان النور يضاء في كل الزنزانات من السابعة حتى التاسعة مساء . فقررت أن أفتح عيني خلال هاتين الساعتين، وشرعت أكتب بسرعة ، كنت أخربش . كانت لدى الكثير من الأمور التى ينبغي تدوينها بحيث لم أعرف بأى منها أبدأ . عدت الى تعصيب عيني وأخفيت رأسي تحت الوسادة . كانت العودة الى السواد تطمئنني . فقد كنت على هذا النحو أتحد شعوريا بالقنصل لم يكن يعرف ذلك ولم أكن أريد له أن يعرف . كان حبي له يسلك سبيل معابره الخاصة ، وتلك كانت الوسيلة الوحيدة كي أكون معه . ان العمى ، حينما يقبل برضى ، يمنح بصيرة وشفافية فريدتين فيما يخص الذات والعلاقات بالآخرين . ولما لم أتمكن من الكتابة بالفعل ، أخذت أستغل هاتين الساعتين من الضوء في القراءة . لم أتمكن من الامتناع عن القيام باسقاطات على كل شخصيات الحكايات التى كنت اقرأ . فكنت أعصب لها عيونها على نحو منظم وأرسلها الى السجن بتهمة القتل العمد مع سبق الاصرار . لم تكن قراءتى بريئة أبدا . بل كان يحدث لى أن أقوم بترحيل شخصية من قصة الى أخرى . كان ذلك يسليني ويسمح لى بان أعمل قليلا . وكان كل ذلك يختلط برأسي ويعمر بعد ذلك ليالى التى كانت تمتزج فيها الأحلام والكوابيس والشاشة البيضاء فتنهكني . كنت قد صرت أنا نفسى ، وبالتدريج ، واحدة من شخصيات تلك الليالى المضطربة الخيالية ، لدرجة أنى كنت أعجل بالنوم لكى أعيش ، مؤخرا ، مغامرات خارج المألوف .

هكذا وجدت نفسى متورطة فى قصة حب قاسية ، كنت فيها ، فى ذات الوقت ، « سازوك » التلميذ المحب لأستاذه ، مدرس الموسيقى ، والمرأة « شونكين » التى صارت عمياء ، لأن غلاية الماء انسكبت على وجهها فحرقته . كنت الرجل والمرأة معا ، تارة ملاكا مأخوذا بالرقة والحب ، وتارة أخرى عاصفة انتقام لا شفقة فيها . كنت النوتة الموسيقية والآلة ، العاطفة

والمعاناة · كانت تجيء الكثرة من السير فاخلط كل شيء بمتعة ، مأخوذة بالفضـــول فى معرفة ما ســتحمله لى الليلة الجديدة من شخوص ·

قرأت بالطبع الف ليلة وليلة فقرات قصيرة ، لأنى كنت أقفز من ليلة الى أخـرى متخيلة تمامـا عواقب الفوضى التى كنت أثيرها ·

كانت ليالى ثرية ، عوضـــا عن الكتـــابة ، كنت أقرأ كى أشحنها · أما الأيام فقد ألغيتها ، وأدمجتها فى السواد وحزمتها فى الحقيبة نفسها · كنت قد قررت الا أرى شيئا من السجن ، أو على الأقل أن أرى أبسط ما يمكن من أشياء · كان ذلك من حقى وكنت متمسكة به ، رغم ما كان يصدر أحيانا من الحارسات من تعليق · ومرت السنة الأولى حسب هذا الايقاع المنتظم : ســـواد بالنهار ، ثم فتح العينين بين السابعة والتاسعة للقراءة أو الكتابة ، سواد من جديد ، مضافا اليه الليل ومواكبه ، ثم زيارة القنصـــل يوم الجمعة ، وكان ذلك يأخذ شكل طقس معين ·

فى أحد أيام الجمعة ، استشعرت منذ الصباح أنه لن يأتى كان قلبى منقبضا ، ولم أكن فى وضع طيب · كنت أعرف ، ومن الصعب أن أقول ماذا · فقط كنت أعرف ·

فى الساعة الخامسة حملت لى الحارسة رسالة · كان المظروف ممزقا · نزعت عصابتى · كانت الغرفة معتمة جدا بحيث لم يكن بامكانى قراءة الرسالة · صعدت فوق السرير ونزعت قطعة الثوب الأسود التى ثبتتها على النافذة · جاءنى خيط من النور ، فشرعت أقرأ · كانت ساقاى ترتعشان ، وقد أصبح من الصعب أن تفتح عيناى عن آخرهما · تمهلت لحظة ·

صديقتى ،

– ماتت أختى صباح الأربعـاء على اثر نزيف فى المخ . دفنتها بمفردى فى اليوم نفسه ، تم الأمر بمنتهى السرعة ، وهذا أفضل . كانت الحياة فى الدار لا تطاق . كنـا فى شجار طوال الوقت . كنت أنا تعيسا وكذلك هى . لم أعد أحتمل عاداتها ، أكلها ، شخيرها ، رائحتها ، صوتها . كنت قد أصبحت أنفر من وجودها . ونفد صـبرى وأخذت أتصرف بعدوانية . اكتشفت مدى العنف الذى يمكن أن يقود شخص يعاكس دائما وبالحاح . فى البداية كان العنف بدنيا ، ثم مع تكرار الأمر ، أصبح داخليا. أضمرت الكراهية لتلك المرأة البائسـة . كانت حياتها كلهـا سلسلة من الاخفاقات بعد طموحات غير معلنة ، وأطماع ، وسعى حثيث لعزلى والاستئثار بى . كانت تمهد لعلفى والتهامى . لكنى كنت أقاوم ، كنت يقظا . بعد وقوع المأساة ، ثم رحيلك ، كانت تعترف أنها المذنبـة ، وكانت تتحدث عنك قائلة : « على كل ، لا يمكن أن يصدر شىء حقيقى عمن بنى حياته على الكذب » . كنت أتركها تتكلم ، ولم أكن أرد عليها . فكانت تبكى وتتمنى الموت . وكنت أتمناه لها فى صـمت . لقد دمرتها غيرتها ، وخربت كل شىء ، ولم يعد أى شىء فى دارنا حى . هى التى قامت بتحريات عنك فى مدينتك الأصلية . وكانت تقول أنها تعمل على فضحك. وأفلحت فى العثـور على ذلك الرجل الدودة الذى هو عمـك ، المرابى الذى كان يجعل من متجره الذى يبيع فيه النعال مكتبـا للقرض . هل تعلمين أن موته أشاع السعادة لدى الجميع . كان الناس يشيعون عنه تورطه فى العديد من الأمور المشبوهة ، وان كانت جميعا عديمة القيمة . كل هذا لأقول لك أن حركتك كانت مشروعة . أنا أفكر فيك ، وعينـاى ، المغمضتان على فكرتك ، راغبتان فى لقياك . على أن أسوى المشاكل الناجمة عن موت أختى . اذ يلزمنى أن أعيد اعداد نفسى . العزلة لا تخيفنى ، لكنى لا أعرف

متى سأســـوى كل شيء . أنا بحاجة لمن يعتنى بالدار وأيضا لمن يشعل لى موقد الطبخ . يوجد حاليا شـــاب من أبنـــاء الجيران يرافقنى . يقرأ لى ويقول أنه مريدى . وهـذا يضـحكنى . أهله يرسلون لى الوجبات الثلاث . هم غاية فى اللطف . وأطفالهـم يتعلمون فى الكتاب . منذ أول أمس وأنا أستقبل الناس بصـــفة مستمرة ، وهم يجيئون لعرض مساعدتهم لى أكثر من تعزيتى . فأختى لم تكن محبوبة . وأعتقد أن هذا أسوأ شيء ، اذ أن الموت فى وحدة وعدم الأسف أسى لا يطاق .معلوماتى تؤكد أن المنحرفين ينهون حياتهم فى عزلة شرسة . أختى لم يمهلها الزمن حتى تواجه هذه المعاناة ، لكنها لم تكن محبوبة وكان هذا يؤلمها دوما . كنت الشخص الوحيد لها فى العالم . وقد حدث أن أحببتها ورضخت لمطالبها . فقد كانت تلح على الاهتمام بكل شيء ، حتى بنظافتى . لكنى لم أحبها أبدا كأخت ، بل كشحاذة تعطى كل ما تملك مقابل قليل من الدفء . هذه هى الشفقة . أنا قاس ، لأنى مدين لهـا بالبقاء على قيد الحياة . لكن هل لا بد للمرء من أن يجر خلفه حتى الموت من حكموا عليه بالحياة ؟ لتنم فى الوقت الحالى مستغرقة بغير ضجيج ، بغير صور ، نوما وراء كل الليالى ، فلن نوقظها بحكم لا رأفة فيه . ان الألم الذى يسكننى لا يتحدث عن نفسه بل عنك أنت ، نهارا وليلا ، وأفكارى تضع جذورها فى غابة شفق أنت فيها أسيرة فى الوقت الحالى ، وقلبى مقعد حجرى مغطى بالأوراق، فى الطريق للتوقف والراحة ، سوف تردك اليه الصدفة أو تعيدك الريح . أنا فى انتظارك . والى اللقاء قريبا .

كان يقول فى الغالب « الى اللقـــاء قريبا » وهو يعنى « بعد قليل » أو « الى الجمعة القادم » . أثر فى موت الحارسة . فعدت أفكر فى شقائها ، فى جسدها الكئيب ، فى خيبة أملها التى تركت آثارا على وجهها ، وحاولت أن أفهم سبب عدم امتناعها عن فعل

الشر بينما لم يكن يرغمها أي شيء على ذلك . كانت تريد أن تحمل الجميع بؤس جسدها المشتبك بكرب نفسها . فبعض الناس يستمدون طاقتهم من الكراهية لكي يعيشوا . ومن الممكن رؤيتهم في الغالب عند الغسق وهم يطوفون حول بركة ماء راكد ، هناك حيث تسبقهم الفئران ، لسكب كل سمومهم . ويقال عبثا أنهم يخرجون الشؤم حتى يتطهروا ، فهم يحملون في الحقيقة ، شحنات سالبة ويبقون في حاجة الى تصريفها في آخرين قبل أن تؤدى الى شللهم ، ثم الى موتهم . فلا بد أن الحارسة ماتت ضحية لرغبتها الخاصة في الحاق الضرر . اذ لابد أنها فقدت رشدها بعد المأساة التي تسببت فيها ، وزرعت فيها الاضطراب ، فلم تعثر على أي مكان ، أو أي شخص تفرغ فيه ضغينتها .

عصبت عيني من جديد وأخذت أتعجل الليل . لم يبق لي سوى انتظار ساعات السكينة التي سيأتي الحب وحده ويشوشها كان كياني بأكمله يتوق للهدوء ، لتلك الحالة التي تتباطأ فيها الايقاعات ، تمنح هدوءا وتعبأ بهيجا . لم تعد لي الرغبة في غير ذلك ، الهجوع المأهول بشخصيات تواصل حياتها في كياني كأني مستودعها وموقدها وقبوها ، حيث تسكن خلال الضوء في النهار لكن ما أن أغمض عيني حتى تسرع الى من كل اتجاه تعاتبني على الغياب الطويل . كنت أضحك وأتابع معها المغامرات التي تم الشروع فيها خلال فترات أخرى . أما الذي كان يضايقني حقا فهو عدم وجود أثر للقنصل في ذلك العالم المليء بالهوجة والضحك والعنف . كان ينبغي العثور على الباب السري الذي يمكن ادخاله منه واشراكه في تلك المناظر . كان حارس مدخل الحديقة الأندلسية رجلا أعمى ، ولكنه ليس القنصل . كانت له عصى يمنع بها الأطفال من الدخول . بل كان يضربهم أحيانا . كان شرسا ، ليس نتيجة عماه ، ولكن لكونه حارسا وفقيرا .

(١٧)

الرسالة

كنت أرتاد تدريجيا بالعصابة السوداء على عينى عالم العميان • كنت أتعلم من جديد حركات الحياة اليومية ، التى كانت قاصرة على ماهو ضرورى فى السجن • ولم أكن أنزع العصابة الا عند القراءة أو الكتابة أو الاغتسال • كانت طبقة العتمات التى أستقدمها تزداد كثافة يوما بعد يوم • فكانت تساعدنى على الانفصال عن جسدى ، على تركه سليما ، محتفظا بذكرى مضطربة ، هى آخر مداعبات الرجل الذى أحببت • كان الزمن يلغى نفسه بنفسه • فلم أكن أتظاهر بشىء هذه المرة • كنت أتكيف وأتعلم اعتياد العزلة والانتظار • كنت الوحيدة ربما من بين جميع السجينات التى لم تكن تشكو من العزلة على الاطلاق • أما الانتظار، فلم أكن أتحدث مع أى أحد بشأنه • كنت أفرض على زنزانتى الصمت بل والنسيان • كنت أدفع المال لأظفر بالسلام • لم أرغب فى تبرير حركاتى أو اعتزالى الداخلى بصفة خاصة • وحدث فى الحبس أمر غريب ، فلم يعد ماضى كرجل متنكر يحاصرنى ، كان قد طواه النسيان • اذ صفيت الماضى بموت العم (أو كنت أعتقد ذلك

على الأقل) • وفضلا عن ذلك لم أكن أعتبر نفسى نزيلة السجن كى أؤدى ثمن تلك الجريمة ، بل لأنتظر وعلى نحو ارادى عودة القنصل، المسافر فى قارة نائية • الانتظار وتعلم الحيـــاة فى الســـواد أحسست بضرورة المرور بهما لاستحقاق ذلك الحب • هكذا كنت أتدبر حياتى الجديدة وأعتصم بالصبر •

أخذت زيارات القنصل تتباعد أكثر فأكثر • كان يفضل أن يكتب لى ، وكان يردد فى كل رسالة تقريبا تألمه الكبير لرؤيتى فى تلك الحالة من العزلة والخضـــوع • وقد عملت على رفــع هذا اللبس فى رسالة أمضيت وقتا طويلا فى كتابتها ووقتا أطول فى تقرير توجيهها له • لم أستطع أن أضع فى ذهنى فكرة أن الرسالة لن يقرأها مباشرة ، فهناك شــخص ثالث • كنت آمل أن أقرأها عليه بنفسى فى بهــو الســجن ، لكن بعض الآذان تكون مصوبة نحونا • وكان بودى أن أعرف الكتابة بطريقة بريل • وبالفعل قدمت طلبا لادارة السجن فى هذا الشأن ، فلم أتلق أى رد • لابد أنهم سخروا منى اليوم فى مقدورى استخدام تلك الآلات الصغيرة للتسجيل ، لكن أشرطة التسجيل لم تكن موجودة فى ذلك العهد • فكان على أن أكتب مرات عديدة رسالة حبى الأولى :

صديقى

أحمل تواضع الكلمات ابلاغك بظل الذكرى المترنح ، وهو ما بقى لى من قصيدتنا • هاقد انقضت بضعة شهور ، وربما قرن ، وأنا أسير نحوك ، مادة ذراعى مثل ذلك التمثال الذى يتقدم فى

الأسطورة نحو البحر • لست خلفك ، بل سلكت الطريق المقابل لألقاك ، ويتلاقى وجهانا مضاءين بالنور نفسه • أتقدم وتحت قدمى أحس بقطعة منى تمد جذورها فى الأرض • ان الطبقة الكثيفة من العتمات التى أنظمها حولى هى العازل الذى يغطينى ويحمينى ، تارة عزما ، وتارة خمارا مرفوعا فى وجه الضوء • اننا ، أنت وأنا ، من الحلم نفسه ، مثلما يكون آخرون من البلد نفسه ، ولن أقول أبدا من العائلة نفسها • يحنو صوتك على مثل صدى نشيد صباحى ، ويرافقنى فى المسير • صوت عار من غير كلمات ، من غير عبارات ، مجـــرد دفء الهمس • وحيثما تكون ، تتعاقب الفصـــول دون ملامستنا ، تمضى وتعود ، خلف الجبال • لا أقوم بأية صلاة من أجل صداقتنا – وتقول أنت حبنا – فهى خارج الكلمات • انهـا نبتة عريضة الأوراق مغروسة فى ضـــميرى وقلبى • تصد عنى التفسخ والعجز فى الانتظار • فيحدث لى أن أمتلىء بالحزن ، وهو حزن بليد وثقيل يحتوينى كمعطف من النجوم الآفلة • وهنا لا أفعل شيئا • أترك هذه اللحظات التي تفصلنى عنك تمر • انك تبتعد ونظراتك تتحول ، أعرف هذا ولا أستطيع له دفعا • أقتات كثيرا على هذا الانفعال الذى أحسه لمجرد التفكير فيك • ان الزمن الذى أسير فيه هو صحراء ، رملها تارة بارد وتارة محرق • أرتدى جوارب صوفية سميكة وأنتعل صندل الرحالة • وأتعهد قدمى لأن الطريق طويلة • أعرف أن الزمن نهر عميق ومتقلب • وأنا أتبعه • انه الحاسة التى تقود نحو مكان لقائنا المقبل •

صديقى ، أرجو أن تجدك هذه الرســالة فى صحة طيبة • فهنا ، كما تعلم ، لا ينقصنى سوى رؤية وجهك • وبين انتظارى وعودتك اتساع بحر أزرق • أقبل يديك •

أبعث بهذه الرســـالة وأنا أقول لنفسى أنه ســيعرف كيف يجد قارئا كتوما ووفيا · كان جسدى يشعر بالبرد · فأكلت كسرة خبز وبضع زيتونات وتقوقعت فى أحد الأركان ، متعبة ، كأنى فقدت الشعور بنفسى نهائيا · وكان نومى عميقا ، فانقضى الليل دون أن ألتقى بشخوص القصص التى كنت أقرأها ·

(١٨)

رماد ودم

كنت قد اعتقدت أننى تخلصت من ماضى الى درجة لم أعد أتذكر معها وجوه البعض والبعض الآخر ، ومع هذا حلت خمس من أخواتى – كانت احداهن مريضـــة مرضا خطيرا أو ميتة تكاد ، والثانية تعيش بالخارج – فى موكب تغلبت فيه البشاعة على الطابع المضحك • (أنا عاجزة اليوم عن اخبـاركم اذا كان الأمر يتعلق برؤيا أم بكابوس أم بهلوسة أم بواقع ، فقد احتفظت بذكرى دقيقة وحية فى تفاصيلها ، لكننى غير قادرة على تحديد المكان والزمان) •

كن جميعا ترتدين بنفس الطريقة ، قميصا أبيض ، ورباط عنق وجلبابا أسود وغطاء الجلباب فوق الرأس ، وشاربا مرسوما بالقلم الأسود ، ونظارات شمسية • تقدمن نحوى واحـدة بعد الأخرى ، كانت كل منهن تحمل كيسا من البلاستيك • كل شيء بدا متجانسا ومعدا بعناية • فظهرت كبراهن وهى تمعن النظر فى بعينيها الجاحظتين ، ووضعت الكيس فوق المائدة ثم أمرتنى بفتحه : كان بداخله فأر ميت • صرخت ، لكن صوتى لم يســمع • كانت

تمسك بيدها الأخـرى موسى ، مفتوحـا ، ومستعدا لجرح وجه أو عنق • كنت ملتصقة بالجدار البارد • وكنت أتحمـــل دون أن أتمكن من الافلات من ذلك التعذيب •

وضعت التالية الكيس أمامى ، وبسكين من سكاكين القصابين أمسكت به فى يدها اليمنى أشـارت لى بفتحة • كانت به علبة صغيرة بداخلها عقرب صهباء ، حية ، على وشك اللدغ •

أرتنى التالية مقصا ومدت لى الكيس • كان فارغا • وما أن فتحته حتى ألصقت رأسى بالجدار وأخذت تقص شعرى • كانت ركبتها فوق بطنى • كنت أتألم • ضحكت الأخريات وقلن : (هذا سيعلمك ، أيتها الكاذبة ، اللصـة ، يامن أخذت منا كل شىء •• أيتها الدنيئة ، التى تذبحنا •• »

انقضت الرابعة على ـ وهى قميئة بل وقزمة ـ وقضمتنى فى العنق حتى سال الدم • كنت أتخبط • أمسكت الأخريات بى ، بينما عبأت القزمة الدم فى زجاجة وضعتها فى الكيس البلاستيك بعد ذلك وهى تقول : « بهذا وبالشعر يتم الأمر » •

أما الأخيرة ـ وهى فيما يبدو الصغرى ـ فقد وضعت كيسها بين ساقى واقتربت منى بأسف ، ألقت بنفســـها بين ذراعى ثم همست فى أذنى : « أنا أحبك كثيرا ، وما كان بودى أن يساء اليك. يداى ، على كل حال ، فارغتان • فأنا لست شريرة » • وسددت لى ضربة رأس على جبينى ومضت وهى تضحك • كاد أن يغمى على من قوة الضربة ، وأحسست بشىء يمس ســاقى • كانت هذه الأخيرة أسوأهن ، اذ حوى الكيس الذى تركته قرب قدمى غير مبالية ، اهدى الحيات ، فصعدت على المائدة وأنا أصرخ ، فى الوقت الذى كنت أتبين فيه موقفى ، كن قد اختفين جميعا • على الأرض ، بضع خصلات من الشعر وقطرات دم وحفنة من الرماد •

كنت أبكي ، وكل جسدي يهتز • كانت التعاسة قد انقضت على كجناح أحد الكواسر عند لمسه لطريدته • عشت هذه القصة ، متى وأين ، لا أعرف • هل كان ذلك أثناء تواجدي بالسجن ، أم في لحظات احتضار أبي ؟ لقد عشتها وعدت أعيشها بعناد وارهاق الصور المشوشة ، والمغطاة كلها بالسواد • كان الأمر يتعلق بأحد الحدادين وأرملة مغتصبة وانتقام •

ربما كان كابوسا سبق أو حـل في أعقاب الغزوة التأديبية التي رحت ضحيتها •

ذات يوم ، وأنا غارقة في العتمة بحثا عن ظل القنصـــل ، جاءت حارسة قوية ودميمة أخرجتني من زنزانتي • نزعت العصابة عن عيني وأرغمتني على السير في أعقابها •

، لك زيارة ، وهي ليست التي تنتظرين •

وبدلا من أن تمضي بي الى ردهة السـجن ، أنزلتني الى قبو ، من المرجح أنه مكان الاعترافات والتعذيب ، أدخلتني الى حجرة رمادية رطبة لم تكن بها غير مائدة ومقعد ومصباح •

ظللت عدة دقائق وحدي في تلك الحجرة الخالية حتى من فتحة صغيرة للتهوية • على الجدار طبقات عديدة من صبغة رمادية داكنة تخفي بقعا من الدم • فتح الباب ، وكما يحدث في المسرح ، رأيت خمس سيدات يدخلن واحدة بعد الأخرى ، يرتدين بطريقة واحدة : جلبابا رماديا ، وشاحا أبيض ، يخفي الشـــعر بداية بالحاجبين ، اليدان في قفازين ، الوجه شاحب لا أثر فيه لأية مساحيق • كن جميعا دميمات ، ينبعث منهن الضـجر ، ففهمت أنهن : طائفة من الأخوات المسلمات المتعصبات الشرسات • شرعن يلتففن حولي • حملقت فيهن فتعـرفت على أخـواتي • كانت

الحارسة متصلبة هنالك . تم شراء تواطئها وصمتها . كن قد أتين لتنفيذ مخطط واضح للغاية ، يتلخص في ايقاع الضرر بي وربما تشويهي أو تهديدي وتخويفي ببساطة . وجـاء حديث الكبرى ليطلعني على نوايا تلك المجموعة من المخبولات :

– جئنا ، خمس أصابع في يد واحدة ، لنضع حـدا لهذا الوضع القائم على التطاول والسرقة . لم تكوني أبدا أخانا ولن تصيري أبدا أختنا . طردناك من العائلة في وجود فقهاء وشهود ذوي نية حسنة وفضلاء اسمعيني الآن : لقد أوهمتنا بأنك تمثال ، نصب يشع نورا ، ويرد الشرف والفخار للدار ، بينما لم تكوني غير ثقب مغطى بجسـد نحيل ، شـأنك شـأني وشـأن أخواتـك الست السابقات . لكنك خدعتنا ، أهنتنا ، وكنت متعالية متعجرفة آه ! لو كان الأمر بأيدينا ، لأذللناك ، انت الصغرى والأخيرة .. لكنا بكل بساطة ذبحنـاك . الله يدبر الأمور جيدا . عندما يضل أحدهم عن سبيله ، يعيده راكعا ، فوق سطح صفيح سـاخن . والآن ، ينبغي لكل شيء أن يعود الى أصله . لن تخرجي سالمة . ستدفعين الثمن . بدون شفقة . وبدون تأجيل . لقد فقد أبونا رشده ، وسقطت أمنا البائسة في بئر الصمت ، فاستفدت أنت من المصيبة وجمعت حاجاتك وهربت بكل شيء . تركتنا على التبن ، في البؤس المدقع ، وفي تلك الدار الخربة التي كان يتعفن فيها كل شيء ، ولم يعد بها أي مكان للحياة . نهبت الدار واغتصبت الارث . واذا كنت اليوم في السجن ، فلأنك تستحقينه تماما . فقد خربت العائلة . ولذلك عليك أن تدفعي الثمن . تذكري ، لست سوى ثقب وساقين نحيفتين . وهذا الثقب ، سنسده لك نهائيا ، سنجري لك ختانا صغيرا ، ولن نتظاهر بذلك ، سيكون حقيقيا ، وستصير الحياة أكثر بساطة . لاشـهوة ولا متعة . ستصيرين شيئا ، خضرة يسيل لعابها حتى الموت . يمكنك الشروع في صـلاتك .

يمكنك الصراخ . فلن يسمعك أحد . منذ خيانتك ، اكتشفنا فضائل ديننا الحنيف ، وصار العدل هوانا الأعظم . والحقيقة مثلنا وضالتنا . والاسلام دليلنا . نعيد للحياة ما يرجع اليها . ثم نفضل التصرف فى نطاق المحبة والكتمان العائلى . والآن ، باسم الله الرحمن الرحيم ، المنصف القدير ، نفتح الحقيبة الصغيرة ..

وأثناء حديثها ، قامت اثنتان بقيد يدى الى المائدة الباردة.. ثم مزقن سروالى ورفعن ساقى الى أعلى . ودلتهن الحارسة التى تعرف الأماكن جيدا ، على خطافين فى السقف وزودتهن بالحبال . فتم قيد ساقى بحبلين . كل ساق من جهة . وحشت الكبرى فمى بخرقة مبللة . ثم ارتدت قفازا وضغطت بأصابعها ورشت محلولا ، وأخرجت من علبة معدنية شفرة موسى نقعتها فى الكحول . أغمى على وأنا أصرخ فى داخلى .

أيقظتنى آلام مبرحة فى منتصف الليل . كنت فى زنزانتى : وحولى دم . فأخذت أدق الباب طلبا للنجدة . لم يأت أحد . انتظرت الصباح وتوسلت الى احدى الحارسات لتقودنى الى غرفة التمريض. رشوتها بالمال . فأعطتنى المرضة ، التى كانت متواطئة مع الحارسة الجلادة ، مرهما واضطرتنى الى التوقيع على ورقة أعترف فيها بأننى شوهت نفسى . كان المرهم فى مقابل التوقيع . وهكذا علمت بأن أخواتى قد رشون الجميع . وخفف المرهم من حدة الألم .

ظللت أكثر من شهر ضائعة ، تائهة ، غائبة عن الوعى ، مجنونة أهذى فى الليل وأنا محمومة ، على حافة الهاوية . كان القنصل قد جاء مرتين ليرانى ، لكننى لم أكن أملك الوجه أو الشجاعة للحديث معه . لم أكن أملك بصفة خاصة القوة لأحكى له عما حدث لى . ومع هذا تسلطت على فكرة الانتقام . فأخذت أعد فى

ذهنى العديد من السيناريوهات ، بعدها أعادنى الخجل من نفسى والتقزز من تلك العائلة ، الى حالتى البائسـة ، ففقدت الرشد وأصابنى الدمار ٠

وبعد زيارته الثانية ، تمكنت من أن أخط له كلمة وأن أبعث اليه بها عن طريق سجينة كانت تكن لى بعض الود ٠ فى تلك الكلمة ، كتبت هذه العبارة الوحيدة :

« ضاعت آثارك ، أنا فى السـواد ولم أعد أراك ٠ مريضة أنا ، والجسد جريح ٠ أنت نورى الوحيد ٠ شكرا » ٠

(١٩)

المنسيون

وأنا جريحة ، منكوبة ، واصلت تسكعاتي الليلية ، بهدف الهروب من الألم أكثر من استهداف اجراء لقاءات جديدة · فتحت لنفسي طريقا بين أجساد نحيلة للغاية ومعلقة في حظيرة · كانت جلودها على العظام ، تتدلى عارية وشفافة·· وثمة حشد من الأجسام المفرغة من كل شيء تنتظر في تلك الحظيرة · رأيت أحد الأبواب في الطرف الآخر ، فتقدمت · وكانت توجد لوحة كذلك تدل على باب الخروج بعدة لغات ، عليها سهام خضراء · لكنني لم أصل أبدا الى المخرج · كان محكوما على أن أتسكع في ذلك المرقد الذي كان يخيم عليه صمت بارد ورائحة الخوف · لم أكن أعلم أن الخوف يمكن أن تكون له رائحة · وهواء خفيف يهب من مكان الى آخر يحرك الأجساد بصعوبة · كانت العظام تصطك أحيانا فيصدر ضجيج ارتطام يحوله الصدى · وقد سمعت صوتا ينبعث خلفي مباشرة :

ـ اقتربي ، ليس لدي وقت غير ما يكفي للكشف لك عن سر

الحياة واخبارك بوجه الموت ٠٠ لاتخافى ٠ لقد اعتقدوا أنى مت ٠ أنا جريح ، لكنى أرى من الآن ما بعد الحياة ٠ هل أنت جريحة ؟ على كل ، لم يعد هناك ما أخشاه : لابد أن تعلمى ، لابد للعالم أن يعلم ٠٠ انتظرى لا تنصرفى ٠٠

تلفت فرأيت رجلا دامى الركبتين ، مخضر الوجه ٠ لم يكن شبحا ٠ كان محتضرا ، وكان يبذل قصارى جهده لكى يبوح لى بسر ما ٠ فاقتربت :

ـ كل الذين ترينهن هنا أناس فقراء ، متسولين ، متسكعين، مرضى ٠ هنـــا ، أنت فى القاعة الكبرى لعرض الحيوانات ٠ ذات يوم ، صدر أمر بتنظيف المدينة ، لأن زائرا هاما ، أجنبيا ، سيسير بضع خطوات فى الشوارع ٠ كنا نحن وجه البلاد القذر ، ذلك الوجه غير المرغوب فيه ٠ لابد من محو هذه الصورة ، ونفى هؤلاء السكان ، أى اخفائهم ، مؤقتا على الأقل ، خـــلال الأيام القليلة فقط لزيارة الغريب ، وتم تنفيذ الأمر ٠ فتم القيام بحملة بعد أخرى ، وكدسونا هنا ونسونا ، نسينا كلية ٠ فتقاتلنا فيما بيننا ٠ وكان على آخر باق حيا أن يختفى لأن شهادته رهيبـــة ٠ أنا أروى هذه الأقوال وأحكى ما رأيته هنا للجميع ٠ هو ليس كابوســـا ، وما نحن بأشباح ٠ نحن رجال صرنا حثالة ومنسيين الى الأبد ٠ لا أحد جاء يطالب بنا ٠ وأنت أول كائن بشرى يدخل هذه الحظيرة ٠٠

من الأرجح أنى دخلت هذا المكان تائهة ٠ ساقنى اليه ألمى الحاد ٠ كنت مستيقظة ، وكانت تلك رؤيا ٠ كل ما فيها حقيقى ، فقد وقعت هذه الحادثة فى الشتاء ٠ ولايزال أهل المدينة يتحدثون عنها ٠ فتم اكتشاف كل تلك الأجساد يوم فتـــح المعرض لاعداد عرض جديد ٠ كان الخوف أشد من الألم ٠ الخوف والتقزز ٠ تحسست جسدى ، كانت به رضوض فى اللحم والعظام ٠ حبست

طويلا رغبة فى التبول · وكنت أعلم أننى سأتألم كثيرا · فمثالتى كانت منتفخة · وعندما تبولت حبست تنفسى · كنت أتصبب عرقا· وكان صوت الرجل المحتضر قد تغلغل فى داخلى الى درجة أنه امتزج بصوتى وصار صوتا خاصا بى · لم أعد أسمع المحتضر ، بل صرت أتكلم داخليـــا ، مرددة بلا توقف ما أسره لى · هذا التملك عمل بشكل ما على تخفيف حدة الألم ·

وهكذا أمضيت ليلتين بين الحمى والألم والخوف ·

تشويهى كان انتقاما · لكن كيف وردت هذه الفكرة الوحشية لأخواتى ؟ علمت بعد ذلك أن ما ألحق بى من تنكيـل هو عملية شائعة فى افريقيا السوداء ، وفى بعض مناطق مصر والسودان · وهى تؤدى الى الغاء شهوة ومتعة الحياة لدى الفتيات المراهقات · وعلمت كذلك أن الاسلام أو أى دين آخر ، لم يسمح أبدا بهذا النوع من التشويه ·

صوت المحتضر الذى سكننى صار جليا وواضحا :

ــ الحارسة عبدة تم جلبها منذ زمن طويل من السودان ·· هى ساحرة ، وخبيرة فى وسائل التعذيب ·

مـن المؤكد أنهـــا هى التى أوحت لأخواتى بتعجيزى هكذا وحرمانى من الحياة نهائيا ·

استمرار الحمى سببه الالتهاب · وكان الألم يسرى فى دمى ، ويشوش كل شىء فى ذهنى · وأصبحت الرؤى مخيفة أكثر بكثير · وألحق التغير صوتى · وتأكد فى دخيلتى أن الموت قد تملكنى · ولكى أتحرر منه كان علىّ أن أقص ما رأيته فى الحظيرة · كنت أبحث عن أى شخص لأتحدث معه · لم تكن هناك حارسة أو ممرضة ·

من حسن حظى أنى سقطت فى الرواق وأنا أعد نفسى للذهاب الى غرفة التمريض ، فى اللحظة التى كان يمر فيها أحد الأطباء • كنت مستيقظة الى حد ما ، وكان هو حانقا • كان يصرخ ويتهم الجميع بالوحشية والهمجية • فقد أطلعه أحد موظفى الادارة على الشهادة التى اعترف فيها بأنى شوهت نفسى • فاشتعل غضبه • ودخلت المستشفى فى الحال • عالج الالتهاب وانتظر عدة أيام قبـــل أن يزيل ، وأنا تحت مفعول البنج ، تلك الخيوط التى كانت تخيطنى ، وعندما شرحت له كيف تم الأمر ، كان من الصعب أن يصدق • أراد أن يستقدم الشرطة ، ولكنــه رفع ذراعيــه بعد لحظة تعبيرا عن عجزه :

ـ الكل مرتشون هنا • لن يصدق أحد حكايتك • ولن تشك الشرطة فى أقوال الحارسات • وهذه الورقة الموقعة بخطك • لكن ماذا ؟ ماذا فعلت لهؤلاء النسوة ؟

طمأننى على حالتى بصفة عامة ووعدنى بأن يبذل قصـــارى جهده لاستبقائى أطول مدة ممكنة ثم قال لى :

ـ هذا هو المكسب دائما على حساب السجن !

كنت لا أزال أحس بالألم رغم الأدوية • كنت مقتنعة بأننى ما لم أكشف عما رأيته فى الحظيرة ـ رأيته أو تخيلته ـ فسيظل الألم ملازما لى • كانت تلك الصور وكذلك أقوال الرجل المحتضر تضغط بثقلها على ذهنى وجسدى ، وكانت كل كلمة بمثابة بللورة حادة الزاوية تخرق المواضع الحساسة بجسدى •

طلبت من الطبيب ، ان كان بامكانه أن يمنحنى بعد العمـــل قليلا من الوقت • تردد برهة ثم وافق • فبدأت بتحذيره من رؤاى

ذات الطابع الخارق ، وفى حالة عدم وجود هذه الرؤى ، فان آثارها تنال منى · وقلت له :

ـ لست مجنونـة ، لكنى أعيش فى عـالم يعوزه المنطق · صدقنى ، فكل ما أطلبه منك هو أن تستمع الى ·

حكيت له بالتفصـيل عن تسكعى الليـلى · فلم يبد عليه الاندهاش · كان يهز رأسه كما لو كانت الواقعـة غير خارقة · وعندما انتهيت وقف وقال لى :

ـ ربمـا لاتكونى قد عشت هذه الواقعة ، لكنها حقيقية · فقد قبضت الشرطة على بعض المتسولين ثم نسيتهم · ولم تذكر الصحافة شيئا عن الموضوع · لكن الاشاعة لها هنا منزلة الخبر الموثوق فى صحته · الجميع كانوا على علم بذلك · لكن أحدا لم يذهب ليتحقق بنفسه · وبناء على ذلك أصبحت واقعة لاتصدق · ما يدهشنى هو العلاقة بين آلامك وهذه الواقعة ··

ـ لنقل بأن ألما عظيما يسمح لى بالرؤية على عتبة العرافة !

بعد تلك الجلسة ، أحسست بتحسن كبير · ولم أكن أفكر ، خلال تلك الأيام ، فى القنصـل · لم أكن قد نسيته ، لكنى كنت حريصة على عدم اشراكه فى واقعة الدم والموت هذه · لم يكن يعلم بدخولى المستشفى · وعندما كان يجىء الى السجن ، كانوا يقولون له أننى لا أرغب فى رؤيته · كان يشك فى الأمر · وكان يعتقد أنى مريضة ، ومحبطة ، لا أجرؤ على مقابلته بوجه عابس لابهجة فيه · كان يتمسك بشدة بتفسيره هذا للأمر ، فبالنسبة له ، يوجد دائما مايمكن اظهاره ورؤيته ، ويوجد ماليس ممكنا كذلك · وعندما جاء الى المستشفى ، كان أول ما قاله لى :

ـ هل أنت على استعداد الآن لتكشفى لى وجهك ؟

كان بعيدا عن الشك في المحنة الدامية التي تعرضت لها ٠

وأول ما قام به هو رؤية وجهي ٠ جلس على حـافة السرير ولامس برقة يديه جبيني ووجنتي وفمي وذقني ٠

ـ بكيت كثيرا وهزلت ! لاينبغي أن تهملي في نفسك ! هذا لا يليق بك ٠

كان الطبيب هو الذي انفرد به وكشف له عن سبب علاجي ٠ ولم يقل لي شيئا في هذا المجال ٠ أمسك بيدي وشد عليهما بقوة ٠ ولما غادر ، مررت بأصابعي على وجنتي فأحسست بزغب ٠ كنت قد أهملت في نفسي ٠ وكان وجهي حزينـا ٠ كانت قد انقضت عدة أيام لم أعتن فيهـا بنظافتي الخاصة اختليت بنفسي أثناء الليل وأعتنيت بمظهري في غرفة الحمام ٠

كان القنصل كثيرا ما يجيء لرؤيتي ٠ يحمـل الي الزهور والفاكهة والعطر ٠ لم يكن يأتي أبدا خالي اليدين ٠ ولم يحدث أن أثار معي مطلقا ما وقع ٠ وقد قدرت ذلك الكتمان ، الذي أقلقني في الوقت نفسه ٠ كيف يمكن تفسير ذلك الصمت ؟ هل كان تعبيرا عن تواطئه وتضامنه ، أم كان دليلا على ضيق يحفر بتمهل سـدا بيننا ؟ كان من الصعب علي أن أتعرض لهذا الموضوع ٠ فعندما كان يجيء ، كان يسأل عن نومي ثم عن أشياء أخرى ٠ كان يتناقش مع الطبيب أحيانا ، لكن في عدم حضوري ٠ وعلمت فيما بعد أنه كان يحمل الهم فيما يتعلق بموضوع انجابي الأطفال من عدمه ٠ كانت تلك المسألة تعذبه ولم يكن يكشف عنها ٠ وأنا أيضا كنت أفكر فيها ٠ فيما مضى ، كنت أستبعد كل فكرة تتعلق بالحمل والانجاب والتربية ٠ لم يكن لدى الوقت للتفكير لا في انجاب طفل ولا حتى في أن كون أما في يوم من الأيام ٠ وأعترف بأني لم أفكر في هذا

مطلقا ، خلال المرات القليلة التى جامعنى فيها القنصل ، وهذا دليل على الجدية التى كان يكتسبها هذا الأمر بالنسبة لى وعلى استمرارى فى اعتبار جسدى كيسا من الرمل · وبكل ارتيــابى ، كنت أرى نفسى أيضا خيال مآتة محشوة بالقش ، وبدلا من أن تفزع الغربان تجذبها · بعضها يكتفى بأن يعشش فوق كتفى ، ويتمادى البعض الآخر فى احداث ثقبين مكان العينين · كنت أفقد معنى وجودى فى العالم · كنت أتفتت وكنت أحس بأنى أتهدم وأبنى من جديد على نحو لا نهائى · كان كل شىء يعود بعنف زوبعــة فى الرأس · كل شىء يختلط · كنت أبحث عن وسيلة أتخفف بها من الألم ، ليس وحده الألم الذى كان يسرى كالسم فى دمى ، بل أيضــا الألم الذى بدأت أشعر به فى أعقاب زيارات القنصل · كان يجىء ويظل صامتا · فكان مجيئه عبئا ثقيلا · كان الارهاق يبدو عليه · والتعاسة تسكنه · وكنت أزداد تشوشا واختلالا وأنا أغرق فى الالتباس والرؤى الكابوسية · ووجدتنى وحيدة من جديد ، أواجه بدون بنج هذه الضربات الأخيرة التى كان يوجهها لى قدر يرد بكل ما فيه من شقاء وأسى وعنف أية رأفة · فقررت أن أعود الى السجن · فتلك الحرية الجزئية المحاطة ببياض يؤلم عينى بشدة ، لم تفعل سوى زيادة اضطرابى · وكان على أن أتوســـل الى الطبيب حتى يعيدنى الى زنزانتى ·

كنت أتهيأ للانصراف ، عندما دخل القنصل الى الغرفة · كان يبدو أقل حزنا من ذى قبل · وقد حمــــل الى حزمة من النعناع وقال لى :

ـ لنقم باعداد الشاى ، كما فى السابق ·

أحسست بشكل حاد لايدع أى مجال للشك فى أن شيئا ما

قد تحطم نهائيا بيننا • ولا أعرف لذلك تفسيرا • فقد أحسست به دون دهشة •

لم نعد الشاى • أخبرته بأنى راجعة الى السجن • لم ينطق بكلمة واحدة • ومع ذلك كان قد جاء ليتحدث معى • جلس على مقعد ، وأنا على حافة السرير • بعد لحظة من الصمت ، رأيت وجهه يحمر :

ـ توقفى عن الحركة ، من فضلك •

ـ لكنى لا أتحرك •

كلا ، أعرف ، لكن توجد حركة ذهاب واياب دائبة فى رأسك •• أنا أسمع أفكارك ، وهى تتصادم •

ثم قال لى بلهجة أكثر هدوءا :

ـ يداى لا تقويان اليوم على النظر اليك • انهما متعبتان • تحسان بأنهما عديمتا الجدوى وحانيتان • أعرف أنهما سالبتان • ضميرى يؤنبنى لأنى لم أكن على مستوى حماسك وشجاعتك • فأنا محكوم على بألا أعرف الحماس أبدا • منذ طفولتى وأنا فى قلب المأساة ، وكان الأمر الذى تلقيته من السماء ، أو من الحياة ، يرغمنى على الجلد ، وعلى الا أقطع خيط الحياة ، وعلى تقوية كيانى ، حتى أجعل من نفسى لا كائنا استثنائيا ، بل عاديا • لا يمكننى أن أعبر لك بانسجام عن كل ما أفكر فيه وأعتقد به • لقد تقبلت موت الحارسة ، لكنى لم أتقبل رحيلك وسجنك • وهكذا ، ومنذ ذلك الوقت ، وأنا لا أكف عن البحث عن ملاذ ، عن مكان لراحة أفكارى وجسدى المنهك • حاولت أن أجعل شفتى أمى المزمومتين تحت الأرض تنفرجان ، حتى أسمع صوتها ، ولو مرة واحدة ، صوتها •• أسمعه يباركنى أو يلعننى •• المهم أسمعه • أعرف أنه يتعين على

القيام بسفر العتمات ، بعيدا عن كل شيء ، في الصحراء ، في الجنوب الأقصى · لكنى أكتب في الوقت الحالى ، وعلى أن أعترف لك بأنى أقوم بذلك بناء على تمليتك · ما أكتبه يفزعنى ويتملكنى · من أين تستمدين هذه المقدرة على عبور الحياة بكبرياء يربكها ، أعنى بشجاعة ؟ فيما مضى ، عندما كنت أكتب لنفسى ، كنت أمارس ذلك في الليل · أما الآن فيصلنى صوتك المشحون في الصباح · أفكارك تعبر الليل وتصل عند الفجر · ودورى يتمثل في تنظيمها وتدوينها · وقليلا ما أتدخل · قصتك رهيبة · ولا أعرف في الحقيقة ، ان كانت قصتك أنت أم قصة التقاء ينجاوزنا جميعا قصة أمر ما ينبع من حزم ضوئية من المجرة ، لأن الأمر يتعلق بالقمر ، والقدر ، والسماء المتمزقة · أقول لك ، أنت السر الذى يتملكنى ، ولا يمكننى التخلص منه الا بالمضى حتى نهاية هـذه القصة · لكن ماذا عساى أن أجد في نهـاية المطاف ؟ لست من اللواتى ينهين قصة ما · انك بالأحرى من اللواتى يتركنها مفتوحة بهدف تحويلها الى حكاية لا نهائية · قصتك سلسلة من الأبواب التى تنفتح على مجالات بيضاء ومتاهات تدور ، أحيانا تفضى بالمرء الى أحد المروج ، وأحيانا أخرى الى دار خربة مغلقة على سكانها بعد

أن يكونوا قد ماتوا جميعا منذ زمن بعيد ، من الأرجح أن هذا المكان اللعين ، الواقع تحت طائلة قانون الغياب والنسيان ، هو مسقط رأسك · أيتها الصديقة ! منذ اتباعى لصوتك ، ومنذ قادنى نحو ليال مسربلة بالحرير وملطخة بالدم ، وأنا في قلب الغرابة · وأنا متأكد من أننى لا أتوهم ·· بل أحاذى ملكتك في العرافة · كيف أبلغك أنى مضطر للعبور من باب ضيق حتى أصل اليك ؟ أسمعك وتلمسك يداى · لكنى أعلم أنك بعيدة ، في قارة أخرى ، أقرب الى القمر المكتمل منك الى بصرى · وأنا أراك تارة رجلا ، وتارة أخرى امرأة ، مخلوقة بهية للطفولة ، منفلتة من الصداقة ، ومن

الحب · أنت في منجي ، يا كائنا للعتمة ، وظلا في ليل آلامي · أصرخ أحيانا دون أن أنتبه : « من أنت » ؟ وأحيانا يغمرني احساس بأنني ، منذ المأساة ، حبيس أذى من السحر ألقته على عائلتك ، ودبرته أياد شريرة ، أود أن أقول لك ، بل أن أتوسل اليك ، بأن تظلي على ما أنت عليه ، وأن تواصلي مسيرك ، لأن السجن لن يوقفك ولا دموع الآخرين · لقد انتظرتك طويلا ، دخلت حياتي بالرقة الغريبة لحيوان ضال · وغدا قلبي معك مسكنا · ومنذ رحيلك لم أعد أعيش به · أصبحت عزلتي عارية ، فلم تعد مشمولة برعايتك · صوتك وحده يحرك جسدي وأكتب · فلا زلت أدون مرتاعا حتى ما تحكينه لي · جئت للوداع والمغفرة · فقد غدت قصتنا مستحيلة · سأواصل عيشها في مكان آخر وبطريقة أخرى ·· اني راحل الى حيث يعود عماي عاهة كاملة ، قدرا مشؤوما ، لم أتمكن من الافلات منه رغم زيارتي لك · اعلمي في النهاية بأني خبرت جمالك بيدي وقد منحني ذلك انفعالا يشبه انفعال طفل يكتشف البحر · أصون هاتين اليدين ، وأغطيهما بثوب رقيق لأنهما تحتفظان بما يشبه السر ، ألا وهو بصمة جمالك · أقول لك هذا لأني خبرت أيضا أن ذلك الانفعال له خصوصية التفرد · اني أغمض عيني وأطبق بيدي عليه ، وأحتفظ به الى الأبد · وداعا ، أيتها الصديقة !

(٢٠)

قصتى ، سجنى

اعتراف القنصل تركنى فى حيرة ، مع يقين فى الوقت نفسه بأن : قصتى ، تلك التى جعلت منى طفلا من الرمل والريح ، ستلاحقنى طوال حياتى · ستكون هى كل حياتى ، ولن تدع مكانا لشىء آخر · وكل ما كنت سأعرفه بعد ذلك سيكون بطريقة أو بأخرى أحد امتداداتها ، أحد تجلياتها المباشرة أو المتنكرة ·

قصتى كانت هى سجنى ، وكان واقع وجودى حبيسة زنزانة رمادية لأنى قتلت رجلا ، أمرا ثانويا · كنت أحمل سجنى معى حيثما ذهبت · كقفص فوق الظهر · كنت أسكنه ولم يتبق لى غير التعود على سكناه · ربما كان ذلك الاعتزال سيساعدنى على قطع الخيوط التى حاكها حولى ذلك القدر المعاكس خيطا بعد آخر · كنت كيسا مسدودا وضع فى حظيرة ضيقة ومختومة · كنت واقعة اذن تحت تأثير خدر خانق طويل المدى ، طويل جدا بحيث أحسست بعمرى تعبره وتختبره قرون عديدة ·

ترك لى القنصل قبل أن يغادرنى ، ورقة مطوية مربعة — فتحتها — كان بها رسم ، أو خريطة طريق · وسهم يشير بطريقة

معوجة الى الجنوب ، وسهم آخر يشير الى الشمال ٠ وفى الوسط ، نخلة ، وبالقرب منها رسمت أمواج على هيئة طيور مشرعة الأجنحة٠ فى خلفية الورقة ، كتب هذا :

وحدها الصداقة ، هذه الهبة الكاملة للنفس ، نور مطلق ، نور على نور ، يبدو فيه الجسد مرئيا بصعوبة ٠ الصداقة نعمة ، هى دينى ، ومملكتنا ، وحدها الصداقة ، سترد لجسدك ذاته التى أهينت ٠ فاتبعى قلبك واتبعى الانفعال الذى يعبر دمك ٠ وداعا أيتها الصديقة ٠

تخليت على أثر ذلك عن العصابة التى كانت فوق عينى ، وعن تسكعاتى فى العتمات ٠ وبدأت تستحوذ على فكرة نور وهاج قد يأتى من السماء أو من الحب ، وهاج تماما بحيث يجعل جسدى شفافا ، يغسله ويعيد اليه سعادة الانبهار وسذاجة معرفة الأشياء فى بدايتها ٠ كانت هذه الفكرة تستثيرنى ٠ فسخرت نفسى كلية للاعداد لها ٠ لدرجة أن صورة القنصل كانت تضيع بعد أن تحولت الى صورة مهتزة ، صعبة المراس ٠ كنت قد فقدت آثاره وكنت أعرف أنه يجوب الطرقات ، ربما فى احدى الجزر أو تحت الأرض ٠

فى السجن كنت أجد الحيـاة طبيعية ٠ نسيت الحاجة الى الحرية ٠ لم يكن الحبس يعذبنى ٠ كنت أشعر بنفسى مهيأة ، كانت النســاء يأتين لرؤيتى ويطلبن منى باستمرار كتابة رسـائلهن للآخرين ٠ كنت سـعيدة بتقديم خدمة أو أكون نافعة ٠ أعطونى مكتبا صغيرا وورقا وقلما ٠ كنت قـد أصـبحت أنا المؤتمنة على الأسرار ، كما صرت المستشارة ٠ الفائدة الوحيدة التى كنت أجنيها من جراء ذلك كانت تتمثل فى راحتى الداخلية ، وفى انشغال يبعدنى عن سجنى الخاص ٠ وأخذت ليالى فى الوقت نفسه تشبه أكثر فأكثر الانتقال ، اذ كانت تخلو تدريجيـا من مستأجريهـا المشبوهين ،

المتوحشين غالبا · كان على كل الشخوص التي تراكمت على حياتى أن تغادر الأمكنة · كنت أطردها بمنتهى القسوة · وكنت بمجرد اغماض عينى أراها تغادر كأشباح تنزل من قطار فى قلب الضباب ، سيئة المزاج ، بعضها يحتج والبعض الآخر يهدد بالعودة للانتقام ، مفاجأة بذلك الخلل المباغت بالضيافة · وقد لاحظت أنها كانت جميعا مشوهة ، مستيقظة بشكل سيىء ، فى حيرة ، تجرجر أقدامها ، بل كان من بينها مقعد يتنقل بسرعة كبيرة ، مسددا اللكمات فى طريقه للمتأخرين · فى العمق كانت سعيدة بالتأكيد لمغادرة هذا الهيكل الذى ينهدم فيه كل شىء · وصارت الليالى تشبه أكثر فأكثر رصيف محطة تم تحويلها لغرض آخر · وكانت الشخوص عند سقوطها من ليالى ، تغرق فى السواد · كنت أسمع وقع خطواتها وهى تبتعد ، ثم كان الصمت يخيم وأحيانا يترامى صوت سقطة ما ·

فى أثناء النهار ، كان عملى ككاتبة عمومية يحتكرنى · أما الليل فكنت أقضيه فى التنظيف · فقد تركت تلك الشخوص بعد رحيلها ، ركاما من الأشياء ، أشياء بالية كانت تنحبس فى ذاكرتى ولا تدعنى أرتاح ·

أمضيت وقتا طويلا فى تنظيف ما بداخل رأسى · ودام هذا الحال عددا من الشهور · ومن الصور التى فقدت ، صورة القنصل · ولم أكن مع ذلك قد رأيته ينزل · كل ما كنت أعرفه هو أنه لم يعد بداخلى · وحدها ذكرى جسدينا المتحاضنين كانت تعود من وقت الى آخر للظهور بشكل واضح · فمن الممكن نسيان وجه ما ، ولكن لا يمكن أن نمحو تماما من الذاكرة دفء انفعال · ورقة حركة ، وصدى صوت حنون ·

جعلتنى مرحلة النشاط أستحق التعيين رسميا من قبل مصلحة السجون ، كاتبة عمومية وسكرتيرة ، وكان على أيضا أن أكتب

مراسلات المدير الذى لم يكن يعرف كتابة غير نمط واحد من الرسائل • كان على كموظفة فى السجن ، ورغم أنى سجينة ، أن أرتدى الزى الرسمى ، سترة وسروالا رماديين ، وقميصا أزرق وربطة عنق سوداء وقبعة كحلية وحذاء أسود •

كان ذلك الزى المضحك يضايقنى فى البداية • لكن لا خيار لى • فهى خطوة كما لو كانت أمرا • وكان العمل ، خاصة بالزى الرسمى ، يساعدنى على الابتعاد عن نفسى • كانت صورة القنصل لا تلبث أن تتلاشى لدرجة أنها صارت نقطة متحركة فى قلب لسان من اللهب • وكانت ذكرياتى تتساقط ، كنت أفقدها على نحو تدريجى مثلما يفقد البعض شعرهم • كان رأسى فارغا ولم تعد أية ذكرى تعلق به •

عندما كنت أرتدى زيى الرسمى فى الصباح ، كنت أنظر الى نفسى فى المرآة ، وأبتسم • فقد كنت من جديد فى زى الرجال • لكنه لم يكن تنكرا • كان زيا للوظيفة • ان النساء يلبسن مثل الرجال ليظهرن بمظهر الصرامة لفرض سلطتهن • أما أنا فلم أكن أتحكم فى أحد ، ومع ذلك كانت السجينات يقدمن لى التحية كما لو أنى رئيستهن • كان ذلك مضحكا • وكان البعض ينادوننى ، ربما بدون قصد بـ « سيدى » • لم أكن أصحح • كنت أترك اللبس ، لكن ضميرى كان مرتاحا • فلم أكن أخدع أحدا • كنت أعتنى بوجهى • وكنت أتبرج أكثر من قبل • صرت أتدلل • ففى السجن يستمر اللعب بالمظهر رغم كل شىء • لكن الرغبة فى اللعب لم تعد تروادنى •

وضعى كان قد تحسن تدريجيا • فقد منحونى بعض الامتيازات • لم أكن أعتبر سجينة بالمعنى الكامل ، ولا كنت موظفة بالادارة كالآخرين • كنت مكرمة من جانب البعض ، ومصدر خشية البعض الآخر • وكنت أتنقل بين المعسكرين كما لو أنى بين لغتين •

عندما كانت المراسلات تقل ، كنت أجمع السجينات الراغبات فى ذلك واللاتى كن لا زلن يهتممن بالحياة الخارجية ، وأقرأ عليهن الجرائد التى انقضت على صدورها عدة أيام · لم تكن الأحداث التى تهز العالم من حروب وانقلابات تؤثر فيهن · كن يطالبن بالوقائع العامة · « نريد الدم ! نريد الحب ! » هكذا كن يصحن · فهن يرغبن معرفة الجرائم العاطفية · وتحولت جلسات القراءة الى سهرات كنت أقص فيها بعض القصص · وبقدر ما كنت أتقدم فى القص ، كنت أختلق · دائما نفس الخطة : حب مستحيل ينتهى بالدم · أستمتع بخلق وتخيل بعض الشخوص والأوضاع · وكنت أتمادى أحيانا فى بعض الاستطرادات حتى تتدخل المستمعات ليسخرن من تعليقاتى · كن يعدن بى الى الواقع دون زيف · وعندما كن يحدثن جلبة كنت أتوقف عن الكلام · كانت موهبتى كراوية تنفذ بسرعة · فكنت أحكى دائما نفس القصة ، قصة اثنين يتحابان فى ظل المغامرة والخطر من مخالفة الشرائع المدنية · ثم تقع المأساة بالكشف عن الممنوع ثم العقاب والانتقام ·

كانت بعض النساء يأتين لرؤيتى على انفراد ويحكين لى حياتهن· كن يختلفن كثيرا ، اذ يعتقدن بأن حياتهن رواية ، وأن قدرهن قدر بطلات مجهولات · ففى السجن ، لم تعد لديهن سوى الكلمات كمصدر للحياة · لذا كن يستعملنها بمناسبة وبغير مناسبة · يختلقن لأنفسهن حكاية مليئة بالمغامرات · وكنت أنصت اليهن بامعان · فتجاربى فى الحياة كانت قليلة · وعبر تلك الحكايات ، كنت أتعلم الكثير من عادات مجتمعى ، دناءة الرجال ، ورفعة النفس وضعفها · تبينت مقدار الوقاية التى تمتعت بها فى الطفولة والشباب ، وكيف كنت مصانة من الريح والبرد والجوع · كأن أبى قد وضعنى تحت الزجاج ، بعيدا عن الغبار واللمس · فكنت أتنفس بصعوبة لأنى كنت أحمل قناعا فولاذيا ، وكنت حبيسة

عائلة هي بدورها حبيسة المرض والخوف والعته . كانت حياتي كرجل متنكر أكثر من خطيئة ، كانت نفيا ، غلطة . لو كنت فتاة بين الفتيات ، لكان قدرى عنيفا ربما ، ولكن ليس بائسا ، ملطخا بالعار والسرقة والكذب .

لم يكن بمقدورى وأنا بين الجدران الرمادية غير أن أجتر هذه الذكريات المملة . لقد فقدت نظرتى انسجامها ، فصارت تقع حيثما اتفق . كانت قد غدت لامبالية . وأحسست أحيانا باللاجدوى ، وهو ما كان بعد ذلك أسنشيط غضبا . لقد وجدت نفسى مرة أخرى فى المكان اللعين الذى دفن فيه أبى . صرت شبحا شريرا ، أخرجته من قبره ووطأته بقدمى . كنت مجنونة وكنت أفكر فى الحرية ، كانت حالتى تسوء وعرقى يتصبب .

بتعاقب الأيام والعادات الصغيرة ، أنتفت الأشياء بداخلى : اختفت نوبات الغضب ، وصارت مشاعرى بيضاء ، ذلك البياض المفضى الى العدم والموت البطىء . كانت انفعالاتى قد تحللت فى بركة ماء راكد ، وكان جسدى قد توقف عن نموه ، فلم يعد يتغير ، كان ينطفىء حتى لا يعود يتحرك ويحس ؛ لا هو جسد امرأة مفعم ومتلهف ولا هو جسد رجل صلب وقوى ، كنت بين الاثنين ، أى فى الجحيم .

(٢١)

الجحيم

كن قد مشين لوقت طويل ، فى صمت ، منذ شروق الشمس وكن يظهرن على البعد وهن يتقدمن زرافات ، آتيات من أماكن نائية • بعضهن من الشمال والبعض الآخر من جهـة الشرق • الرغبة فى الوصول الى هذا التل الرملى والدخول الى هذا المكان الأسطورى ، مصدر كل ضوء ، لم يدع الفرصة لرؤية الجوع والعطش والتعب على وجوههن ، كانت شفاههن مشققة من الحرارة والريح ، كان البعض يفصد ، وكن جميعا يتقبلن هذه المضايقات ، دون كلل أو ندم • كن يمشين على الرمل لدرجة الاهتزاز بتحركاته ، حاملات ظلالهن كأعلام لتحية التل الأخـير ، لنسيان الريح الجاف وبرد الصباح ، للوصول تماما فى اللحظة التى يخفق فيها الضوء ويلتبس ، فى اللحظة التى يبعد فيها الشمس ويلتحق بالسماء عند عتبة الليل ، كان لابد من الوصول فى تلك اللحظة بالضبط التى كانت مدتهـا غير محددة • كنت قد قررت فى عزلتى أن يبدأ الخلود من هنا • وعلى كل مسيرة أن تنتهى وتغوص فى ذلك الضوء • فللصـــحراء قوانينها ونعمة أسرارها •

المسافرات لم يكن يطرحن أسئلة · كن يعلمن بأن عليهن الوصول فى اللحظة التى كان الضوء يشرف فيها على العبور من النهار الى الليل · كان هذا هو أحد شروط قبول مسعاهن لدى الولية ·

كنت ولية ولكن عديمة الرأفة · تارة تمثالا ، وتـــارة أخرى مومياء ، وكنت أهيمن ، لم أعد أملك ذاكرة ، وكنت قد جئت من اللامكان · دمى كان أبيض · عيناى يتغير لونهما حسب الشمس ·

كانت معظمهن شابات ، تصحبهن أمهاتهن أو خالاتهن ، لايجرؤن على النظر الى الشمس ·فقد كان على أعينهن أن تظل مطأطأة ،محدقة فى الرمل الذى كانت أقدامهن ، الملفوفة فى جوارب سـميكة من الصوف ، تحفره وتدمغه فى صمت ·

كن قد سمعن عن وليـــة الرمال ، ابنة الضوء ، التى تتمتع بنعمة وقدرة انهاء كل أمر عضال ، ومنع وقوع الشؤم ، بل وابعاد العقم نهائيا عن أجساد النساء الشابات أيضا · كن يأتين اذن بعد أن تعييهن الحيل جميعها · كنت أنا ملاذهن الأخير ·

كان على كل شيء أن يتم فى صمت · وكان للصمت فى ذلك المكان لون البرد الجاف ، لون شبيه بالأزرق · كان يفرض نفســه كضوء متسلل من بين الأحجـار · كان يسكن أذهانهن على الدوام صدى بعيد ووحيد لصرخة طفل ·

كنت أجلس على عرش ، يداى فى قفازين أبيضين ووجهى ملثم · كانت النساء يعبرن الغرفة ، واحدة بعد أخرى ، جاثيات ورؤوسهن مطأطأة · كان يفصلنى عنهن نصف متر تقريبا · كن يقبــلن يدى ويرفعن ثيـــابهن · وكان على أن أمرر يدى برفق على بطونهن المستوية وألامس عاناتهن ·

كنت أخلع القفاز وأنقل اليهن الدفء الذى يضمن لهن مبدئيا الخصب · كانت أصابعى تحرث أحيانا أســفل البطن بقوة ، كمـا

لو كان الأمر يتعلق بأرض رخوة ورطبة · وكانت النساء سعيدات، فكانت بعضهن يستبقين يدى فوق بطونهن · كن يعتقدن بأن الملامسات لا تكفى · وزيادة فى التأكيد ، كن يرغمن أصابعى على دعك جلودهن ، وعلى دمغها لدرجة جرحها · لم أكن أشعر بكلل· وكانت النساء يتقاطرن طوال الليل · فقد كان القانون ــ قانون ذلك المكان وقانون السيد الكونى غير المرئى ــ يفرض عليهن الانصراف مع الفجر · مع أشعة الشمس الأولى · وكنت أحتار أمام النساء المفرطات الشباب · فقد كن أحيانا صغيرات فلا أجرؤ على لمسهن · كنت أكتفى بأن أغمس أصابعى فى قدح من الزيت وأضعها بحرص على شفاههن · كانت بعضهن يلعقنها ، وكانت أخريات يبعدن وجوههن ضيقا ربما من رائحة الزيت القوية · كانت أمهاتهن يضربنهن فى الغالب على رقابهن لارغامهن على تلطيخ وجوههن فى يدى ·

الجحيم ، عرفته فيما بعد · كان ذلك فى ليلة من تلك الليالى المضيئة التى كان كل شىء فيها مفرطا : الضجيج كان يتعاظم ، الأشياء كانت تتحرك ، الوجوه كانت تتغير ، وأنا كنت ضائعة ومهانة ·

كنت جالسة كما هى العادة ، ويدى مستعدة للطقس · كنت أؤدى الحركات بطريقة آلية · وكل شىء كان يبدو لى مشوشا ، مغلوطا ، خليعا ومضحكا · فجأة ، خيم الصمت فى المزار · كانت النساء واقفات فى الصف ، لتلقى مفتاح خلاصهن من يدى ·

الجحيم ، كان بداخلى ، بفوضاه ، وهلوساته ، وعتهه ·

لم أكن أعرف ماذا أفعل ، كان البطن العارى المتقدم الى به شعر دسست يدى قليلا فعجبت ، سحبتها ونظرت الى الوجه الذى كان يحاول اخفاء نفسه ، فقال لى بصوت منخفض :

– طويل هو الوقت الذى مضى على رحيلك . لماذا تركتنـــا بهذه القسوة ؟ لم تتركى لنا سوى ظلك فجفانى النوم . بحثت عنك فى كل مكان . عودى الآن . أعيدى الى نفسى ، حياتى ، وأعيــدى الى قوة الرجولة . ان قدرتك هائلة . والبلاد كلها تعرف ذلك . طويل هو الوقت الذى مضى على رحيلك . ضعى يدك من جديد على بطنى . ولا تترددى فى تمزيقه بأظافرك . فاذا كان لابد لى من الألم فلأتألم اذن بيديك . أنت جميلة وصــعبة المنال . لماذا ابتعدت عن الحياة ، لماذا تقبعين فى ظل الموت ؟ ..

كان يضع غطاء جلبابه على رأسه . وكنت خائفة مما يمكن أن اكتشفه . فربما كان الصوت معروفا لى . لم أشعر بحاجة الى رفع غطاء الرأس ، فقد فعل ذلك بنفسه . كان لون الوجه وشكله يتغيران وثمة صور تتراكم بعضها فوق بعض ، مكونة صورة أبى تارة ، وتارة أخرى صورة العم الذى قتلته . وفجأة لاحت لى فضلا عن هذين الوجهين العتيقين صـــورة القنصل ، وعيناه مفتوحتـــان متألقتان ، ضاحكتان ، صافيتان ، زرقاوان ربما . لم يعُد الرجل يحدثنى . كان ينظر الى ويتفحصنى . خفضت بصرى ثم انحنيت وقبلت يديه . لم تكن لدى رغبة فى الكلام . فقد أحسست بكل حرارة جسده تتصاعد بداخلى ، حرارة آتية من نظرته المفتوحة ، من عينيه وقد تحررنا من العتمــات . كانت فورة الحرارة تنتزع حاجبى فى خصلات صـــغيرة ، وأهدابى ، وبعض القطع من جلد الجبين .

أحسست بمغص فى بطنى ، ثم بخواء ، خواء دائم يحفر بداخلى كان رأسى عاريا ، وكان كتفـــاى محترقتين ، ويداى مشـــلولتين لا تتحركان . كنت أكابد ، بغير معرفة لبقية العالم ، كما لو كنا ، ذلك الرجل وأنا ، محبوسين فى قفص زجاجى . كنت بمثـــابة هزيمة ، وكنت أسير وحيدة على طريق رخاميـــة ، حيث يتهددنى

السقوط • وتبينت أني كنت أخرج من نفسي ، وأن ذلك المشـــهد عليه أن يؤدي الى ذلك الرحيل في جسد مهزوم ، كنت أمتلىء بخرق بالية ، ومعرضة لذلك الضـــوء الذي كان رائعا حقا ، لكني كنت خائرة القوى ، بلا شـعور ، محترقة من الداخل ، ملقاة في دوامة الفراغ ، ومحاطة بالبياض • قلت لنفسي وأنا مترددة بعض الشيء : « اذن هذا هو الموت ! الرحيل بقدمين عاريتين فوق رخام بارد ، ونحن ملتفون بغطاء من البخار أو بسحب بيضاء • ليس في هذا ما يزعج •• لكن أين النهاية ؟ هل سأظل أبد الدهر تحت هذا الضوء الذي يحرقني ولا يمنحني ظلا ؟ اذن ليس هذا بالموت ، انه الجحيم •• ! » •

حدثني صوت مجهول ، ولكنه واضح ، قائلا : « ذات يوم ، وليس ذات ليلة ، فالليالي في الجهة الأخرى ، ذات يوم ســـتلدين طائرا كاسرا ، سيجثم على كتفك ويدلك على الطريق • ذات يوم ستنحدر الشمس نحوك قليلا • وستترك جسدك سليما لكنها ستحرق كل ما يضمه ، ذات يوم سينشق الجبل ويمضي بك • ان كنت رجلا سيحتفظ بك ، وان كنت امرأة ســـيهبك حليا من النجوم ويرسلك الى بلد الحب اللانهائي •• ذات يوم •• ذات يوم»

تلاشى الصوت • ربما كان صوتي الخاص الذي حبس بداخلي • لابد أنهم أخذوا صوتي وتركوه يتيـه بين السحب • كان وحده اذن وهو يتحدث الى نفسه • لم أكن أتمكن من صياغة أية كلمة كنت محرومة من الصـوت ، لكني كنت أسمعه ، بعيدا عني ، يصدر من جهة أخرى ، وهو يعبر جبالا أخرى • كان صـــوتي طليقا ، بينما ظللت أنا سجينة •

كانت ليالي المؤرقة مليئة بصورة تلك النســـاء المرتديات الأبيض ، العابرات الرمال بمشـــــقة • كن متجهات نحو نقطة

بيضاء فى الأفق · ترى هل سيصلن يوما الى ذلك المكان الذى لا يوجد الا داخل حماقتى ؟ وحتى اذا تفضلت يد حانية ووجهتهن بمعجزة نحو قبر احدى الوليات ، سيجدن أنفسهن أمام الضلال انى أعرف هـــذا الآن ولا يمكننى اخبـــارهن به · على كل لن يصدقننى · فلست سوى مجرمة عليها أن تقضى مدة عقوبتهـا وتلجأ الى هذه التخيلات لخداع الملل ! ربما ! لكن الألم ، الألم الذى يحدث ثقوبا فى الرأس وفى القلب ، هذا الألم لا يمكن الافصاح عنه أو ابرازه · انه داخلى ، حبيس ، محجوب ·

لم أكن بحاجة الى هــذه الرؤى الجديدة المنسوجة بالحرائق والحمى ، لتحطيم باب القدر السميك · كنت على وشك الخروج كان لدى حدس بذلك · لكنى لم أكن أرغب فى ترك الســجن مثقلة بكل تلك الصور التى كانت تنهكنى · ما العمل للتخلص منها ؟ كيف يمكن ايداعها على الأحجار الرمادية لزنزانتى ؟

وضعت العصابة السوداء على عينى من جديد ، وتعريت ، ورقدت على الأرض مبـــاشرة ، كنت عـــارية تماما · وكان بلاط الاسمنت باردا · فكان جسدى يدفئه ·

كنت أرتعد · وقد أقسمت على أن أصمد للبرد · لم يكن هناك مفر من الخوض فى هذه التجربة ، حتى أتخلص من تلك الصور · وكان لابد من أن أذكر جســدى وحواسى بمكان حبسى وبأنه من الوهم الافلات منه بأحلام تتحول الى كوابيس ·

اذا كانت النفس منسلخة ، فان الجسد لم يعد بمقدوره أن يكذب · نمت رغم الرطوبة والبرد اللذين كانا ينخران جسدى · وكانت ليلتى طويلة ورائعة · لم تعترضها أية صورة · فى الصباح كنت أسعل ، لكنى أحسست ببعض التحسن ·

(٢٢)

السولى

كنت أبكى وأنا أخرج من السـجن بعد أن تمتعت بتخفيف العقوبة . فرحت لأن عينى كانتا مغرورقتين بالدموع ، فلم يحدث لى ذلك منذ زمن طويل جدا . كانت دموعى سعيدة لأنها كانت تذرف من جسد يولد مرة أخرى ، جسد قادر من جديد على امتلاك شعور وانفعـال . كنت أبكى لأنى أغادر عالما نجحت فى العثور على مكان فيه . كنت أبكى لأن أحدا لم يكن ينتظرنى ، وكنت حرة ، ووحيدة فكرت فى القنصل ، لكنى كنت أعلم أنه غادر المدينة ، مضى بعيدا الى حيث قد يتحرر من قصتنا .

أحسست برغبة عارمة فى رؤية البحر ، فى شم عطره ، ورؤية لونه ، ولمس زبده . فركبت عربة كبيرة كانت متجهـة جنوبا . سرنا طوال الليل . كان الناس يدخنون ويشربون الليمون . لم يضايقونى . ظللت مفتحة العينين ، أنتظر ظهور البحر . ورأيت فى الصباح الباكر ضبابا خفيفا فى بادىء الأمر يتصاعد من الأرض كان مثل غطاء شاسع فوق سـطحها ، غطاء أو حقل من الثلج . تبينت بعض القوارب والمراكب الشراعية . كانت معلقة تقريبا ،

أو مرفوعة فوق خطاف من الضباب · كان عمق الفضاء أبيض وناعما · كان يوجد في الأشياء ما يشبه البراءة ، نوع من السحر يجعلها قريبة ومسالمة · كانت الأشياء مهتزة ، وغامضة · وربما كان بصري هو الذي يرتبها بشكل سيئ · فلابد أن الحلم كان يستقي صوره من تلك الطبقة البيضاء التي تعبرها أشعة زرقاء ·

كان الفصل خريفا · كنت أرتدي جلبابا رجاليا ، صوفه سميك وخشن ، وشعري معقود في وشاح جميل فاقع الألوان · وضعت الأحمر على شفتي والكحل في عيني ، ونظرت الى نفسي في مرآة صغيرة · كان ماء الحياة يسري ببطء في وجهي من جديد · كان يشرق من الداخل · كنت سعيدة وخالية البال وكان مظهري غريبا ومضحكا في جلباب سائقي السيارات التي كنت أرتديها · فقد وجه لي المسافرون الذين كانوا لا يزالون بين اليقظة والنوم نظرات قلقة · فابتسمت لهم · فغضوا أبصارهم · لأن الرجال عندنا لا يطيقون أن تنظر اليهم امرأة · أما هم ، فيحبون النظر والتفحص ، ولكن بطريقة مواربة دائما ·

في تلك المدينة ، كانت المحطة الأرضية تواجه البحر · ويكفي أن يخطى المرء حائطا قصيرا كي يلقي بنفسه على الرمل · مشيت بتمهل بمحاذاة الشاطئ المقفر · كنت أتقدم في الضباب · ولم أكن أرى أبعد من بضعة أمتار · وعندما نظرت خلفي ، أحسست كما لو أني مطوقة بحزام من الضباب ، كما أني ملفوفة في برقع أبيض يفصلني عن بقية العالم · كنت وحيدة ، منفردة في تلك العزلة الهائلة التي تسبق حدثا كبيرا : خلعت نعلي ، كان الرمل رطبا ، أحسست بهواء منعش يهب من بعيد ويدفعني · استسلمت له كورقة ترتفع بخفة · وفجأة ، هبط من السماء نور ساطع ، نور يكاد لا يحتمل ، كان من العنف بحيث رأيت كرة معلقة ، هي مصدر ذلك النور ، وقد شق سجف الضباب · كنت كالعارية · لم يعد يغلفني

شيء أو يحميني · كانت أمامي مبـــاشرة ، في الأفق الذي اقترب بأعجوبة ، دار كاملة البيـــاض · كانت قائمة فوق صخر عــال · تسلقت الأحجار ، ووصلت الى القمة · كان البحر أمامي ، والرمال خلفي · وكانت الدار مفتوحة ، ليس لها أبواب · عبارة عن غرفة شاسعة جدا ، ولم يكن بهــا أثاث ، أرضهـــا مغطاة بحصر بالية · ومصابيح غاز معلقة تنشر ضوءا كابيا · في احدى الزوايا ، بعض الرجال ، منهم النائمون ، وآخرون يصلون في صمت · في الجهة الأخرى ، وبعض النساء والأطفال · كانت سيدة عجوز تصـــلي وحدها · اقتربت منها وتفحصتها · لم تكن تراني · كانت مستغرقة في صلواتها ، فجلست بالقرب منها · وتظاهرت بالصلاة ، فأخطأت احدى الحركات ، فلفت ذلك انتباهها ·

كانت تشبه الحارسة بشكل غريب · أقل منها بدانة ، الا أنها كانت تقوم بنفس حركاتها ، ولهـــا نفس الطريقة في الجلوس · توقفت عن الصلاة وأخذت أنظر اليها بقلق · كانت أصابعها تداعب حبات مسبحة ، وشفتاها تتحركان بصعوبة · التقت نظرتانا ، ثم انحنت على بعد فترة وقالت لي وهي تواصل التسبيح :

– ها أنت أخيرا !

كانت هي ولا شك ! الحارســة ! لم يتغير صوتها · أمــا وجهها فقد تغضن قليلا لكنه صار أكثر هدوءا وأكثر انسانية ·

تراجعت لحظة ، ثم قلت دون أن أفكر :

– نعم ، ها أنذى !

كنت تحت سيطرة سحر ما ، وكنت سأقول شيئا عندمــا أمسكت بذراعي :

– تكلمي بصوت منخفض ، والا ستوقظين الولي ·

كل شيء أصبح جليا فى ذهنى • كنت أفكر فى أنه لا توجد بين الحياة والموت سوى طبقة رفيعة جدا من الضباب أو العتمات ، وأن الكذب ينسج خيوطه بين الواقع والظاهر ، لأن الزمن ليس سوى وهم لآلامنا •

نهض الولى بعد الجميع • وخرج من باب فى العمق • كان مغطى بالبياض ، ملثما ويضع نظارات سوداء • الرجال والنساء كانوا يتسارعون لتقبيل يده باحترام • أحيانا كان أحد الرجال يتريث بالقرب منه ، ليفضى له بالضرورة بسر فى أذنه • كان الولى يهز رأسه ، ثم يطمئنه كما لو كان يباركه •

نهضت بدورى ووقفت فى صف النساء • ثم ، رغبت فى المزاح ، فالتحقت بصف الرجال ، بجلبابى كان من الممكن اعتبارى رجلا • وعندما صرت فى مواجهة الولى ، جثوت وأمسكت بيده الممدودة ، وبدلا من أن أقبلها ، أخذت ألحسها ، ماصة أصابعه واحدة بعد أخرى • حاول الولى أن يجذبها ، لكنى كنت أمسكها بكلتا يدى ، كان الرجل مضطربا • فنهضت وهمست فى أذنه •

ـ مضى وقت طويل ولم يداعب وجهى أى رجل •• هيا ، أنظر الى بأصابعك ، برفق ، براحة يدك •

انحنى على وقال لى :

ـ أخيرا ، ها أنت ذى !

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٨/٥٠٤٧

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ١٨٥٥ ـ ٩